الأديب والالتزام

محمود الجومرد

مطبعة المعارف - بغداد
١٩٨٠

الى الأخ العزيز الأستاذ بشير حديد
مع خالص المودة ووافر الاحترام

المؤلف

الأديب والالتزام

محمود الجومرد

مطبعة المعارف ـ بغداد

١٩٨٠

الاهداء

الى المؤمنين بهذا الرأي :-

(ان مهمة الكاتب ليست مجرد اقناع القارىء ،)
(بل في حمله على التفكير ٠ ٠ ٠ ان الادب)
(طريق الى ايقاظ الرأي ٠ لا أريد من الكتاب)
(أن يريح قارئه ويلهيه ، انما أريد أن يطوي)
(القارىء الكتاب فتبدأ متاعبه ٠ ٠ ٠ ان مهمة)
(الكاتب ليست في تخـــدير النفوس بل في)
(تحريك الرؤوس ٠ ٠ ٠ الكاتب مفتاح للذهن)
(يعين الناس على اكتشاف الحقائق والمعـارف)
(بأنفسهم لأنفسهم ٠)
(ان مهمة الكاتب هي تربية الرأي ٠ وكل)
(كاتب لا يثير في الناس رأياً أو فكراً أو مغزى)
(يدفعهم الى التطور او النهوض او السمـــو)
(على انفسهم ، ولا يحرك فيهم غير المشـــاعر)
(السطحية العابثة ، ولا يُـقِـرُّ فيهـم غير)
(الأطمئنان الرخيص ٠ ٠ ٠ ولا يمنحهم غير)
(الراحة الفارغة ، ولا يغمرهـم الا في التسلية)

(الساقطة والملذات السخيفة التي لاتكوّن فيهم)
(شخصية ولا تثقف فيهم ذهناً ولا تربي فيهم)
(رأياً ، لهو كاتب يقضي على نمو الشعب وتطور)
(المجتمع !)

توفيق الحكيم
من كتاب (فن الادب)

المقدمة

عندما نستمع أو نقرأ حكمة او مثلا أو قولا مأثورا ، نلتـذ ونتأثر وربما نحفظ ما سمعناه أو قرأناه ، ولا يهمنا أن تكون الحكمة والمثل والقول المأثور جاءت من الصين أو الهند أو من أي بلد في العالم • وقديما قالوا : خذ الحكمة من أي وعاء خرجت •

وعندما كنا صغارا ، كنا نفرح ونأنس بالقصص والخرافات التي تروى لنا على لسان الحيوانات ، لان فيها معاني ومغازي وأسلوباً في سردها وحكايتها توافق هوانا ومستوى تفكيرنا ، وما كنا نعلم ان هذه القصص والخرافات هي من وضع الحكيم اليوناني (ايسوب Esope) والشاعر المفكر الفرنسي (لافونتين Lafontaine) وقد ترجمت الى معظم لغات العالم ، وسمعها وقرأها ملايين الاطفال في الماضـــي والحاضر ، وستظل مصدر متعة وتسلية وتهذيب لكل الاطفال في كل العصور •

ونحن عندما نقرأ قول الشاعر المتنبي :

وإذا كانتِ النفوسُ كِباراً تَعِبَتْ في مُرادِها الأجسامُ

هذه الحكمة التي تدل على علوّ النفس وأهدافها السامية ، وما يقاسي الجسم في تحقيق أهدافها وطموحها ، تُحدث في الانســـان قناعة ورضا بما يصادفه من مصاعب ومتاعب في الحصول على أغراضه النبيلة • فلو ترجمنا هذا البيت الى أية لغة من لغات العالم ، وقرأه

رجل عالي النفس لأنس به ودعاه الى أن يقف ولو لحظة للتفكير في نفسه وفيما يلاقي •

كل هذا مردّه الى أن طباع البشر واحدة ، ورؤيتهم للألوان هي هي ، فالأبيض أبيض في كل عين ، والازرق أزرق عند الجميع ، الا اذا كان الانسان أعمى أو كان فيه (عمى الالوان) ذاك الذي لايرى غير الاسود والابيض ، وتنعدم في عينيه رؤية بقية الالوان •

لذلك فقد كانت الاعمال الخالدة التي يقرأها كل الناس في كل العصور ، فيشعرون فيها بما يمتع ويغذي عقولهم ويملأ رؤوسهم ويسمو بعواطفهم وخيالهم ، كانت منصبّة على طباع النفس الانسانية، بما فيها من خير يجب أن يدوم ، وما فيها من شرّ يجب أن يُعالَج فيخف أو يزول •

وليست الأعمال الخالدة تصدر عن جاهل أو غافل أو عديم الموهبة ، أو تأتي بالصدفة دون قصد ، بل هي ثمرة موهبة يدعمها الفكر والعلم والدراسة وفهم الطباع البشرية ودخول معترك الحياة •

والحكمة تجربة عنيفة قاسية ، صهرت انساناً ذكياً كبير العقل والقلب ، فنطق بكلمات محدودة حوت من المعاني ما لا حدود لها ، وهنا العجب وهنا البلاغة والأعجاز ، وقريب من الحكمة المثل والقول المأثور ، وليس في الحياة شيء خالد يأتي من الفراغ والعدم ، والعقل الكبير في القلب الكبير •

والحكيم والفيلسوف اليوناني (ايسوب) الذي حفظنا بعض خرافاته ، عاش حوالي ٦٢٠ ق٠م٠ و'لد قِنًّا – أي عبداً مملوكاً – وبعد أن كبر أعتقه سيده مكافأة له على علمه وذكائه ، فصار يتنقل ويسافر الى بلاد كثيرة ، يناظر العلماء والحكماء والفلاسفة ،ويحكي بعض خرافاته الحكيمة للشعب – لأن الخرافة كانت توافق مزاج الشعب اليوناني – فأحبه الملوك والأمراء ، وبعثه أحدهم في سفارات سياسية عديدة • وكان ايسوب في خرافاته عند اليونانيين معلماً عظيماً ومهذباً للأخلاق ، وقد اهتم بهذه الخرافات معظم مفكري أوربا وادبائها ، فأنتشرت في كل انحائها ، لأنهم يرون أنها ترمي دائما الى غرض نبيل عظيم ، ذلك هو كشف النزعات البشرية وترقية الخلق بمعناها ومغزاها المستتر وراء حديث الحيوان • والخرافة هي وسط بين الحكاية والمثل •

ولافونتين ١٦٩٥ م من أعظم شعراء فرنسا ، وأساس مجده الأدبي حكاياته على ألسنة الحيوانات ، وكلها دروس في الاخلاق ، ولقد اشتهر بدماثة اخلاقه وانتظام حياته ،حتى سموه (الرجل الطيب لافونتين) •

فالآداب العالمية التي تقرأها كل الشعوب في كل العصور وتؤثر في حياتهم ، كانت ثمار مواهب نادرة ودراسة وعمق في فهم الطباع البشرية ، وعقول مملوءة علماً ومعرفة وحكمة ، لأن الموهبة وحدها لاتصنع الفنان ، سواء أكان أديباً أم رساماً أم نحاتاً أم نجاراً ••• والأعتماد على الموهبة وحدها مضيعة لها ، وهدر لأعظم نعمة تمنحها السماء للأنسان •

ولعل الأدب من أعمق الفنون أثراً في حياة الشعوب ، فهو يثقف العقل ، ويسمو بالخيال ويهذب العاطفة ويرقيها ، وليس بين الفنون جميعها ما يقوم بهذا كله .

لذلك كان على الأديب الذي أنعمت عليه السماء بهذه الموهبة أن يصونها ويحفظها وينميها ويسمو بها ، وذلك ما تطلبه السماء من الموهوب ، وتعاقب من يخرج عن حدودها ويعبث بنعمتها .

وليس بين الأدباء أديب يؤدي رسالته حق الأداء كالأديب الملتزم المرتبط بمبدأ انساني ، يعالج به مشاكل الحياة وينير للناس الطريق المستقيم ، لأنه بموهبته أبعد نظراً وأوضح رؤية لحقائق الحياة ، وما يراه واضحاً جلياً قد لايراه كثير من الناس ، فهو يعين على فهم الأنسان والعالم ، وهو مكتشف ومحقق ومنقب عن العلل والأدواء ، وهو الطبيب والدليل الهادي لكل خير .

ولكن ، من هو الأديب ؟ وهل يلتزم كل أديب ؟ وما هو أدب الملتزم ؟ وما أثر حياته الخاصة في أدبه ؟ وما وظيفة الأديب الملتزم الأجتماعية ؟ وكيف ينشأ ويتوجه الأديب الناشيء ليكون ملتزماً ؟

هذه أسئلة أجبت عليها ، وهي موضوع الكتاب ، وقد ذكرت آراء بعض المفكرين والأدباء والفلاسفة الذين لآرائهم وزن وقيمة ، لئلا يكون الحديث انشاء أو رأياً شخصياً لايستند على ما يؤيده من القدماء والمحدثين الذين جربوا وفكروا وكتبوا .

وقد أتيت بالأمثلة ، لأن المثال أبسط وأفضل وسيلة لأيضاح

الفكرة ، وأعلق بالذهن من الحدث العابر ، وكلما وجدت رأياً أو مثالا يزيد في الوضوح ويعطي الفكرة التي أريدها ، أطلت فيه عن قصد وغاية .

ونقلت في آخر الكتاب وصية الأديب والمفكر الفرنسي (الدكتور جورج ديهاميل) Georges Duhamel عضو الأكاديمية الفرنسية لولده اذا كانت له الموهبة ومال الى الأشتغال بالأدب ، لأن فيها تذكرة للمفكرين وتوعية للناشئين .

ولعل القارىء يعذرني على ما يجد ، ويتقبل هذا الكتاب على علاته ، والكمال لم ينله مخلوق على وجه الارض .

محمود الجومرد

من هو الاديب ؟

لست أجد جواباً على هذا السؤال ـ كما يريده معظم نقـــاد الأدب ـ كقول ابن قُتَيْبَة : عبد الله بن مسلم بن قتيبـــة[1] الدِّينَوَرِي ٢٧٦ هـ ـ ٨٨٩ م .

يروي ابن عبد ربه ٣٢٤ هـ ـ ٩٣٥ م في كتابه (العِقْـد الفَريد) أن ابن قتيبة يقول[2] [من أراد أن يكون عالماً فليطلب فناً واحداً ، ومن أراد أن يكون أديباً فليتّسع في العلوم] وفي باب آداب العلماء والحكماء يقول[3] [اذا أردت أن تكون عالماً فأطلب فناً واحداً واذا أردت أن تكون أديباً فتفنّن في العلوم] والمعنيان واحد في هذين القولين .

والأرادة عند ابن قتيبة تستند الى الطبع والموهبة ، وبدونهمـا لا ينفع علم ولا تعلّم ، فيقول في مقدمة كتابه (الشعر والشعراء)[4] : [والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر وأقتدر على القوافي وأراك

---

(١) دِينَوَر ـ بكسر الدال وفتح النون والواو ـ مدينة من اعمال الجبل في فارس قريبة من همدان ، أقام بها ابن قتيبة مدة ولايته القضاء فيها فنسب اليها . مولده في بغداد وقيل في الكوفة .

(٢) العقد الفريد ، جـ٢ ، ص ٢٠٨ .

(٣) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٤٢٣ .

(٤) الشعر والشعراء ، ص ١٢ .

في صدر البيت عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة] .

ويتحدث عن اختلاف طباع الشعراء ليعرف كل أديب نوع الفن الذي يجيده من فنون الشعر فيقول(٥) [الشعراء بالطبع مختلفون ، فمنهم من يسهل عليه المديح ويتعذر عليه الهجاء ، ومنهم من تسهل عليه المراثي ويتعذر عليه الغزل ... ثم يضرب الأمثال على ذلك] .

فالأديب في نظر ابن قتيبة هو الموهوب الموسوعي الذي يعرف أي فن من فنون الأدب يتفق مع طبعه وموهبته ومزاجه ، والا خانه الطبع وخسر موهبته ، وهذا ما يعنيه معظم النقاد – في الشرق والغرب – بالأديب في هذا العصر .

وضياءالدين بن الأثير ٦٣٧ هـ – ١٢٣٩ م في كتابه [المَثَل السائر في أدب الكاتب والشاعر] يقول(٦) [إعلم ان صناعة تأليف الكلام من المنظوم والمنثور تفتقر الى آلات كثيرة ، وقد قيل : ينبغي للكاتب أن يتعلق بكل علم ، حتى قيل : كل ذي علم يسوغ له ان ينسب نفسه اليه ، فيقول : فلان النحوي ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ، ولا يسوغ أن ينسب نفسه الى الكتابة فيقول: فلان (الكاتب)، وذلك الى ما يفتقر اليه الخوض في كل فن . وملاك هذا كله هو الطبع ، فانه اذا لم يكن ثَمَّ طبع فانه لا تُغني تلك الآلات شيئاً .
ومثال ذلك كمثل النار الكامنة في الزِناد والحديدة التي يُقدح بها ،

---

(٥) المصدر السابق ، ص ٤ .
(٦) المثل السائر ، جـ١ ، ص ٧ .

ألا ترى أنه اذا لم يكن في الزناد نار، لا تفيد الحديدة شيئاً ؟ ...].

وفنون الأدب ـ والشعر بخاصة ـ هي ثمار العقل والخيال والعاطفة ، فالعقل الواعي الذي يدرك ويحلل ويصنّف ويعمل ، لا بدّ له من أغذية تنميه وتكسبه الصحة والدوام . وأغذية العقل : التجارب والآداب والعلوم والفنون ، ولا يعيش العقل على غذاء واحد أو على أحاديث الناس وفتات الصحف والمجلات .

والخيال خاضع للعقل ومرتبط بـه . فالطفل يتخيل أموراً لا تخطر على بال ، هو يركب بساط الريح ويطير ، والعصا بين رجليه فرس رهان .... وكلما كبر الطفل ووعى وأدرك وتثقف ، قرب خياله من الواقع .

والعلماء يتخيلون ، والذين تخيلوا الصعود الى القمر والاتصال بالكواكب كانوا يدركون قيمة العقل البشري وتقدم العلوم والتكنولوجيا الحديثة ، ويعرفون بما درسوه وجربوه ، ان ما تخيلوه هو قريب من الواقع ، وهكذا كان .

والخيال يستبدّ بالعقول الساذجة ويصرفها كيفما شاء ، ويهوى بها في سرابه ومتاهاته .

والعاطفة سيل دافق ، اذا لم يحدد مسارها العقل ويضع لها السدود والقيود ، سارت جياشة على غير هدى ، فصاحبها ، هذا اليوم ، صديق ودود ، وغداً عدو لدود ، اذا أحب هام على وجهه واذا كره سحب خنجره وأسال الدماء .

وكان أندريه جيد[7] Andre Gide الأديب الفرنسي يقول[8] [بالعواطف الجميلة يُصنع الأدب الرديء الفاسد] وفي رأيه ورأي غيره من المفكرين أن المشاعر أشياء لا عقلية ٠

[وكان أدباء اليونان يشبهون الشعر بمركبة فخمة ، يقودها جوادان : الخيال والعاطفة ، وسائقها العقل ، فاذا انحرف أحد الجوادين عن الطريق إختل توازن المركبة ، فعلى السائق ـ أي العقل ـ أن يقودها باتزان فلا يدع أحدهما يتغلب على الآخر ، حتى لا يختل توازن المركبة] ٠

– ٢ –

والأديب يعبر باللغة ، واللغة وعاء الفكر ، فالفكر الناضج الواضح لغته مهذبة واضحة ، والفكر المضطرب لغته كذلك ، وأنت تستطيع أن تدرك بسهولة فكر الأديب من لغته وحديثه ومما يكتب ، وقديماً قالوا : عقل الكاتب في قلمه ٠

وجمال اللغة ـ وعاء الفكر ـ في بساطتها وشفافيتها ٠ والأديب الموهوب من أدرك سر هذا الجمال فأتى بالسهل الممتنع ، وهذا مطلب صعب يناله من إمتلك حظاً من موهبة وجداً وكداً وصبراً على إتقان

---

(٧) أندريه جيد ـ كاتب فرنسي ولد في باريس ١٨٦٩ م له عدة روايات ومقالات في النقد ، وقد ترجم له الى العربية رواية (السمفونية الريفية) ٠

(٨) كتاب في الفلسفة والشعر ، ص ٣٥ ٠

أدوات فنه ، وتثقيف عقله وادراك تجربته ، واتبع وصية (جورج ديهاميل) عضو الاكاديمية الفرنسية في كتابه (دفاع عن الأدب) بقوله[٩] [عش بحرارة ثلاثة أشهر لتكتب ثلاثة أيام وتنتج ثلاث صفحات .... والموهبة وحدها هي التي تعطي الألفاظ قوتها الحية ومعناها ، والمواهب أسرار غامضة] .

ويقول هـ.ب.تشارلتن H. B. Charlton أستاذ الأدب الانكليزي في جامعة مانشستر في انكلترا ، في كتابه (فنون الأدب)[١٠] : [ليست الألفاظ رمزاً يشير الى فكرة ومعنى فحسب ، بل هي نسيج متشعب من صور ومشاعر أنتجتها التجربة الانسانية ، وبثت في اللفظة فزادت معناها خصباً وحياة . فاذا رأيت رجلاً غنياً بألفاظه فأعلم أنه لذلك أوسع حياة من سواه ، واذا رأيت رجلاً قديراً على استخراج المعاني من ألفاظها فأعلم أنه أيضاً أعمق حياة من سواه . وأول طابع يميز الشاعر من سائر الناس قدرته على أن يستخرج من اللفظة المعينة عدداً من المعاني يعجز عن استخراجه سائر الناس . للألفاظ تأثير عظيم في الشاعر ، فهي تنفجر في نفسه كأنها القنبلة المشحونة ، فتخرج كل ما تحتويه في جوفها من صور ومشاعر وتجارب . فكل لفظة عند الشاعر مستقلة بوجودها ، متميزة بشخصيتها تختلف عن كل لفظة أخرى في خصائصها وسماتها .

---

(٩) دفاع عن الادب ، ص ١٦٣ ، ١٩٩ وسأحدثك عن المؤلف .

(١٠) فنون الأدب ، ص ٨ .

[11] [والشاعر الحق هو مَن تميز عن سائر الناس بأدراكه لما في الألفاظ من قوة ، فالكلمة عنده لا تفسّر بالعقل وحده ، لكنها تفسّر كذلك بالقلب والخيال ، فاذا ما ترددت لفظة في ذهنه كان لها أصداء مدوّية في دخيلة نفسه] .

والدكتور غوستاف لانسون ، يقول في حديثه عن البيان في اللغة [12] [إن مفردات اللغة في المعاجم كالحجارة في مقالع الأرض، من يأخذها على حجمها الناشز ، ووزنها الجامد ، ثم يضعها كما يضع البنّاء حجارته بعضها الى جانب بعض على طبقات مرصوفة مرصوصة، لايكتب بغير القلم البطيء الثقيل، وبيانه محروم من الطراوة والرشاقة والدقة ، ذلك أن حرارة الأسلوب لا تستوي على الوجه الساطع الا بعبقرية التأليف بين الالفاظ من حيث المرونة واللدونة في ثناياها . فمن يفوته هذا بالفطرة الأصلية او الدرس الصابر ، يفوته سرّ هذه العملية الكيميائية التي تمزج الكلمات مزجاً يبدّل من لونها وعطرها وصوتها وطبيعتها .

[ولا تظنن أن الكلمات الجزلة المتماوجة الرنانة هي التي تمتاز

---

(11) فنون الأدب ، ص 17 .

(12) كتاب من النقد الفرنسي ، ص 105 ، 118 ، 123 ، الدكتور غوستاف لانسون شاعر ومفكر فرنسي كان أستاذ قيصر روسيا نيقولا الثاني منذ عام 1886 م عاد الى فرنسا وأصبح استاذ الأدب الفرنسي في جامعة السوربون ، زهد في عضوية الاكاديمية الفرنسية لكن المعجبين به ألحوا عليه بقبول عضوية رابطة الشرف فيها . توفي سنة 1934 .

لأبحاء الخصب ، فان للبساطة والتجريد أثرهما في العبور من مطفي الألفاظ الى ما يتصل بها أو يختبيء وراءها من الأفكار ....

وقوام الأمر كله في الألفاظ المجردة منها والمحسوسة ، عائد الى عبقرية الكاتب وفن الشاعر، فعلى قدر مساندة الكلمات بعضها لبعض، وعلى نوع التأليف بينها ، يتوقف الأحسان في نشر الثروة الفكرية على وجه بيان الكاتب او الشاعر .... ان مزاوجة الألفاظ فيما بينها عملية دقيقة لا تقوم بها الا بصيرة إنشيء بعد كل كلام ، فليعرف الأدباء هنا على الدوام ..... ان وضوح البيان آتٍ من إشراق الفكرة في ذهن الكاتب ، من حيث خصائصها وسعتها وصلتها بغيرها ، وآتٍ من إحكام التعبير عن المراد بالدقة المرجوة ..... ان مهمة الالفاظ هي أن تعرب عن المعاني في نحو دقيق ، أو قل على نحو بسيط ، فما نعرف بياناً إستطاع أن يتعامى عن البساطة ، لأنها التكافؤ بين اللفظ والمعنى ، أو المطابقة بين الشكل والفكرة ، ولا تعاوض البساطة والأسلوب مع الروعة ولا مع الدقة ، وذلك لقدرتها على كشف أسمى أنواع الفكر وأدق ألوان البيان] .

ونقاد الأدب العربي القدماء تحدثوا عن اللفظ والمعنى ، وأيهما الأهم . بدأ الجاحظ ٢٥٥ هـ - ٨٦٨ م الحديث عن اللفظ والمعنى في كتابه (البيان والتبيين) ثم أبو هلال العسكري ٣٩٥ هـ - ١٠٠٤ م في كتابه (الصناعتين) وابن رشيق القيرواني ٤٥٦ هـ - ١٠٦٣ م في كتابه (العمدة) والأمير ابن سنان الخفاجي ٤٦٦ هـ - ١٠٧٣ م في كتابه (سر الفصاحة) وعبدالقاهر الجرجاني ٤٧١ هـ - ١٠٧٨ في

كتابه (أسرار البلاغة) وابن الأثير ٦٣٧ هـ ـ ١٢٣٩ في كتابه (المثل السائر) ، وغيرهم •

ولعل أبا هلال العسكري أكثرهم حماساً لقيمة اللفظ في كتابه (الصناعتين) فهو يقول[١٣] [وليس الشأن في ايراد المعاني ، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي وانما هو جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أَوَد ـ تعب ـ النظم والتأليف • وليس يُطلب من المعنى الا أن يكون صواباً ، ولا يُقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت •••• ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة والشاعر في القصيدة، يبالغون في تجويدها ويغلون في ترتيبها، ليدلّوا على براعتهم •••••• ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا أكثر ذلك ، فربحوا كداً كثيراً] •

والأستاذ أحمد حسن الزيات في كتابه (دفاع عن البلاغة) ينقل رأي أبي هلال العسكري ويقول[١٤] [وليس أدلّ على أن الشأن الأول في البلاغة انما هي لرونق اللفظ وبراعة التركيب ، من أن المعنى المبتذَل او المرذول او التافه قد يتّسم بالجمال ويظفر بالخلود اذا جاد سبكه وحسُن معرضه • ولا بأس أن أقدّم اليك مثلاً من آلاف الأمثلة ، بلغ معناه الغاية في السوقيّة والفحش ، ومع

(١٣) الصناعين ، ص ٥٥ •

(١٤) دفاع عن البلاغة ، ص ٢٦ •

ذلك تحب أن تسمعه وتحفظه وتعيده ، لأنه بلغ من سرّ الصناعة غاية يَطْلع دونها أكثر الأقلام ـ ثم يروي حكاية أبي العيناء الأعمى ـ .... فان اللفظ في ذاته كالموسيقى يخلب الأذن ويلذ الشعور وان لم يترجم ، أما المعنى فكالكهرباء ، اذا لم يكن لفظه جيد التوصيل انقطع تياره فلا يُعرب ولا يُطرب] .

وللأستاذ ميخائيل نعيمة رأي في اللفظ يحدثنا عنه في كتابه (الغربال) فيقول[١٥] [ان لمفردات اللغة التي نصوغ منها منثوراتنا ومنظوماتنا صفات، عجيبة وميزات غريبة، فلكل كلمة معنى أو روح، ولكل كلمة رنة ، ولكل كلمة صبغة أو لون ، والمجيد من الكتّاب والشعراء من اذا شاء الأفصاح عن عاطفة او فكرة ، جمع بين مفردات يتولد من اِرتباط معانيها معنى جليّ ، ومن اِندماج ألوانها صورة واضحة جميلة ، ومن تآلف رناتها لحن رقيق شجيّ غير أن من الكتّاب والشعراء من لا يرون من الألفاظ اِلاّ معانيها ، فهؤلاء قد يُفصحون عن عاطفة او فكر انما يجيء افصاحهم عارياً عن الجمال خالياً من الموسيقى ....] .

ـ ٣ ـ

ومطلب ابن قتيبة من الأديب أن يتفنّن بالعلوم ، لم يكن بدعة اِبتدعها ، بل كانت من خصائص الأديب ولايزال ، لأن الأنسان بفضل العلوم يتسع أفق تفكيره ويرهف حسّه ويسمو شعوره ،

---

(١٥) الغربال ، ص ٦١ .

وتدق الصور في مخيلته ، وتكون للكلمة التي يلفظها او يكتبها قيمة ووزن ومعنى ، وتفتح له الحياة نوافذها ليرى ما لا يرى غيره منها ، فيزداد اهتمامه بنفسه ومجتمعه وعالمه الذي يعيش فيه ، وبذلك يصبح انساناً يهتم بهموم الناس ، ويقدم لهم ما يثقف عقولهم ويهذب عواطفهم ، والأحاسيس هي التي توصل الأحاسيس ، أما الألفاظ وحدها فلا تستطيع ايصال الأحاسيس الى الغير ، (وما خرج من القلب حل في القلب وما خرج من اللسان لا يتجاوز الآذان) .

ويقول جوته Goethe ١٨٣٠ م الأديب والشاعر والمفكر الألماني الذي كانت له دراساته في علوم مختلفة[١٦] [إن من يعرفون السحر الذي نحسه عندما نكتشف عن أسرار الطبيعة لا يستغربون من خروجي من الدائرة التي بقيت الى الآن داخل نظامها ، وأنني ألقيت نفسي في طرب وحب في دائرة جديدة ، ولست أخشى لوماً من أولئك الذين يجدونني متناقضاً ، لأني تركت التأمل في القلب البشري (بالشعر) الى التأمل في الطبيعة (بالعلم) إذ لا بد من التسليم بأن هناك علاقة حسية بين جميع الأشياء ، وان العقل المستطلع السائل لا يرضى بأن يُحرم البحث فيما يمكن بحثه] .

ومطلب ابن قتيبة صار يدعو اليه الأدباء والمفكرون ونقاد الأدب في هذا العصر ، بحيث أصبح الأدباء أقرب الى العلماء ، وصاروا يبحثون في شتى الموضوعات العلمية والاقتصادية والفلسفية ، وهكذا

---

(١٦) كتاب الأدب للشعب ، ص ١٥٧ .

سبقهم ابن قتيبة بأحد عشر قرناً .

فهذا الشاعر والناقد الانكليزي ستيفن سبندر [١٧] Stephen Spender يقول في كتابه (الحياة والشاعر) [١٨] : [من الضروري جداً أن نقرر أن الأدب كله ولا سيما الشعر هو فن تجب تنميته عن طريق التأمل والدراسة ، وهذان يتطلبان وقتاً وعزلة ، فالرأي القائل بأنه لا يوجد سوى نوع واحد من التجارب صالح للشعر ، وهو أعنف التجارب الممكنة ، انما هو رأي خاطىء ضار ، فالأديب محتاج دائماً وقبل كل شيء الى أن يضع نصب عينيه أن الأدب هو (أحسن الألفاظ في أحسن الأوضاع) حتى يحمي نفسه من تيار الألفاظ التي يُساء استخدامها ، هذا التيار الذي يغزوه من العالم حوله ..... واذا أراد الشاعر أن يتطور ، ينبغي له أن يقرأ ويدرس لا الحياة وحدها ، ولكن الكتب أيضا . وربما يلوح لنا أن الشعر ينشأ مستقلا عن الكتب ، وسبب ذلك الأعتقاد الخطأ أن الدراسة التي يقوم بها الشاعر لا تقع دائما في اطار الصورة التقليدية التي تمكننا من النجاح في الامتحانات العامة . ويختلف الشعراء في دراستهم ، اذ يتعمق البعض في قراءاتهم في مجال ضيق ، بينما تشمل دراسة البعض الآخر الأدب بأسره ، بل قد يقرأون هذا الأدب في لغات عدة ، ولكنني أؤمن

---

(١٧) ستيفن سبندر : شاعر وناقد انكليزي . نشأ في أوائل هذا القرن وظهر انتاجه الأدبي منذ سنة ١٩٣٢ وكان يساريا في اتجاهاته السياسية ، اشترك في الحرب الاسبانية ١٩٣٦ مع جيله من أدباء الشباب تطوعا ضد الفاشية .

(١٨) كتاب الحياة والشاعر ، ص ١٧٢ .

بانه كما لا يوجد شعر لا ينبع من الحياة ، فكذلك لا يوجد شعر أبداً لم ينبع من تجارب أدبية عميقة كل العمق] .

والشاعر الناقد الامريكي ت.س. إليوت T. S. Eliot الذي يتخذه بعض أدباء الجيل الجديد مثلاً أعلى في الشعر والنقد[19] [درس في جامعة هارفارد ـ في أمريكا ـ وأُجيز في الفلسفة ، وقرأ الأدب الفرنسي في السوربون ـ في فرنسا ـ ودرس الفلسفة الاغريقية في أكسفورد ـ في انكلترا ـ وقضى سنتين يدرس فقه اللغة السنسكريتية والهندية ، وسنة يدرس الميتافيزيقيا الهندية ، وهو يقرأ في خمس لغات الى جانب الانكليزية ، وهي : الاغريقية واللاتينية والايطالية والفرنسية والسنسكريتية] .

ونحن لو رجعنا الى كتب تراجم الأدباء واللغويين الذين خلدوا وتركوا آثاراً باقية لوجدناهم قد تفننوا وتوسعوا في معظم علوم زمانهم ، وكتاب (الفهرست) لأبن النديم ٣٨٥ هـ ـ ٩٩٥ م مثلاً ، يحدثنا عن كثير من هؤلاء .

وهذا قدامة بن جعفر البغدادي ٣٣٧ هـ ـ ٩٤٨ م مؤلف كتابي (نقد الشعر ونقد النثر) كان قد تثقف بالثقافات العربية والفارسية واليونانية والهندية ، وهو من علماء البلاغة والفلسفة والمنطق والحساب ، وقيل هو أول من وضع الحساب ، والذين ترجموا له لم يدعوا علماً في زمانه الا ذكروا طول باعه فيه ، ومؤلفاته خير دليل على ذلك .

---

(١٩) النقد الادبي ومدارسه الحديثة ، جـ١ ، ص ١٤٦ .

وأبو حيان التوحيدي ٤٠٣ هـ - ١٠١٢ م أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء - كما قيل عنه - درس على شيوخ زمانه في بغداد والبصرة كل ما رغب فيه • درس الفلسفة والأدب والمنطق والطبيعيات والألهيات والتصوّف والكلام على مذهب المعتزلة ، والنحو واللغة ، والشعر والهيئة وسائر معارف ذلك الدهر • وكتاباه (المقابسات) و (الامتاع والمؤانسة) خير شاهد على سعة أفقه كأديب موسوعي متفتّح الذهن دقيق العبارة •

(وابن قتيبة نفسه كان مثلاً صادقاً لما قال ورأى، وقد طبقّه على نفسه • نشأ في القرن الثالث الهجري ، قرن اجتمعت فيه الثقافات الفارسية واليونانية والهندية ، فأخذ يقرأ ويقرأ كل ما وجده من علم وأدب ، ويقول عن نفسه [20] [كنت في عنفوان الشباب وتطلّب الآداب أحب أن أتعلق في كل علم بسبب وأن أضرب فيه بسهم] •

درس على شيوخ زمانه في بغداد : الأدب واللغة والنحو والعروض والأخبار والمنطق والفقه والفلك ، وتعمق في دراسة الأديان والمذاهب ، وسائر ماجدّ وظهر في عصره • ولما شبّ واكتمل ألف[21] (٤٧) كتاباً في معظم مادرسه وتعلمه ، وما من أديب الا قرأ أحد كتبه : أدب الكاتب أو الشعر والشعراء او عيون الأخبار أو المعارف • وما من فقيه الاّ رجع الى كتبه وآرائه •

وابن قتيبة أول من وضع (المقدمات) لكتبه يشرح فيها أهدافه

---

(٢٠) ابن قتيبة ، ص ١٨٠ •

(٢١) تجد هذه الكتب وموضوعاتها في مقدمة الجزء الاول من كتابه عيون الاخبار •

وما تحويه وهو أول من صنف الكتب الى (أبواب) بعد أن كانت أشتاتاً مبعثرة لا يربط موضوعاتها رابط ، كما فعل معاصراه : الجاحظ وأبو العباس المبرّد ٢٨٥ هـ - ٨٩٨ م في كتابه (الكامل) • ووضع المقدمات وتقسيم الكتاب الى أبواب لأول مرة في حركة التأليف ، خير دليل على عقل ناضج وأفق واسع منظم •

ويخبرنا ابن النديم في كتابه[٢٢] (الفهرست) أن ابن قتيبة هو أول من خلط في النحو المذهب البصري بالمذهب الكوفي فكان المذهب البغدادي • وقد عرف المستشرقون عظمة هذا الرجل وقالوا عنه[٢٣] [ان ابن قتيبة خير من يمثل ثقافة عصره في القرون الوسطى سواء في الشرق أم الغرب ، وانه عالم وأديب فذّ ، وانه من كبار علماء الفلك وانه موسوعة علمية] •

وكانت عناية المستشرق الانكليزي[٢٤] (جيب Gibb) ١٩٠١ م بأبن قتيبة كبيرة جداً في كتابه (الأدب العربي Arabic Literature) فهو يعده مؤسس المدرسة البغدادية في النحو ، وبعد أن يتحدث عن كتبه : عيون الأخبار والمعارف والشعر والشعراء يقول[٢٥] [انه رفع صوتاً عالياً لأول مرة في فقه اللغة

---

(٢٢) الفهرست ، ص ١٢١ •
(٢٣) ابن قتيبة ص ١٢٢ ، ١٣١ ، ١٨٠ •
(٢٤) البروفسور جيب استاذ الادب العربي في مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة لندن •
(٢٥) Arabic Literature P. 55.

العربية ضد العقيدة الراسخة عن شعراء قبل الاسلام] ثم ينقل عبارة ابن قتيبة من مقدمة الشعر والشعراء[٢٦] [ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره – الى قوله – وجعل كل قديم منهم حديثاً في عصره وكل شريف خرجيا[٢٧] في أوله] .

هكذا كان أدباء الشرق – عندما كان الغرب غارقاً في جهله ووثنيته – يغذون أدبهم بالعلوم والمعارف ، فأنتجوا وخلدوا .

وليس عمر الخيام ١١٣٢ م الشاعر الفارسي بمجهول ، ولم تصبح (رباعياته) في تلك الروعة والشهرة لو لم يكن قد درس الفلسفة والرياضيات[٢٨] [فهو قد تلمذ على ابن سينا وساهم في اصلاح الحساب السنوي الفارسي وألف كتاب (المصادرات على اقليدس) و مشكلات الحساب].

(٤)

وهؤلاء الخالدون من أدباء الغرب – بعد يقظته – غذوا مواهبهم بشتى العلوم والمبادىء الفلسفية ، وأهتموا بتعلم اللغات ليطلعوا على حضارات الأمم ، وألفوا فيما تعلموه وأجادوه وتركوا بعدهم روائع

---

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٥٥ ، وكتاب الشعر والشعراء ، ص ٢ .

(٢٧) خارجيا – الخارجي من يسود بنفسه من غير أن يكون له قديم .

(٢٨) معجم لاعلام الشرق والغرب ، ص ١٨٤ .

الآداب والفنون ، فكانوا أقوى الاركان في بناء الحضارة الحديثة .

فهذا جون ملتون John Milton ١٦٧٤ م الشاعر والفيلسوف وبطل الحرية الانكليزية ومؤلف (الفردوس المفقود) و (الفردوس المستعاد) رمزاً للسياسة في عصره . يقول عنه اللورد[٢٩] ماكولي Macaulay ١٨٥٩ في مقال له عنه[٣٠] [نال ملتون من العلم حظاً عظيماً ، وكان يتقن الآداب اليونانية واللاتينية القديمة ، ويكتب باللغتين في يسر ورشاقة ، وكان مطلعاً على الأدب العبراني كله عارفاً بأسراره ، وكان ملماً بكل لغة من لغات اوروبا الحديثة ، يستطيع الملم بها وقتئذ أن يفيد منها علماً ولذة ، ولعله كان هو الشاعر الكبير الوحيد من بين جميع الشعراء المحدثين ، الذى امتاز بالشعر اللاتيني البديع] .

وهذا الأديب الشاعر العالم الالماني جوته Goethe ١٨٣٠م[٣١] [أراد وهو في الثلاثين أن يرتقي ... ومنذ تلك السنين وحياته مليئة بالنشاط ، يختبر ويدرس ويستمتع ويسيح ويقرأ ويؤلف الى أن بلغ الثالثة والثمانين ... كان يفر من أصدقائه كي يتوفر على الدرس ، وكان يؤلف القصائد ، ويدرس في الوقت نفسه تشريح

---

(٢٩) اللورد ماكولي : أحد كبار النقاد والكتاب الانكليز في عصره .

(٣٠) ترجم المقال الاستاذ محمد بدران في كتاب خاص بعنوان (ملتن) ص ٣٦ .

(٣١) الادب للشعب ص ١٥٦ .

الحيوان والانسان ، ويقارن بين النباتات ، ويجمع الأحجار الدفينة ، كي يعرف تاريخها الجيولوجي ، ومع هذا النشاط كان يؤدي اعمالا ادارية ووزارية وجامعية ومسرحية] •

وجورج[٣٢] ديهاميل Georges Duhamel الطبيب والأديب وعضو الاكاديمية الفرنسية • ولد في باريس سنة ١٨٨٤ م ودرس الطب وأتجه للأدب • ولما نشبت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ لبّى دعوة وطنـه ، وتطوع للعمل في مستشفيات الجيش ، وهنـاك رأى الموتى والجرحى ، وأستمع الى أناتهم وتوجعاتهم ، فتكونت محنته وتجربته الحقيقية وفلسفته ونزعته الانسانية ودقة تفكيره في نظرته الى الحياة • ولما انتهت الحرب ألف ثلاثة كتب عن كوارثها وويلاتها ونال على أحدها جائزة أدبية [وهو مزيج من العقل والتصوف ••• وهذا هو سرّ المكانة التي احتلها ، لا في فرنسا فحسب بل في العالم الغربي كله ، حيث ترجمت مؤلفاته التي تتجاوز الخمسين مجلداً • وقد كان من الخصب أن ساهم في معظم مظاهر الثقافة الأدبية الحديثة، من شعر الى مسرح الى نقد الى قصص الى تفكير ، واسمه مرتبط بالكثير من تيارات النشاط الروحي ، وان لم ينضمّ الى أي منها] • وألف كتابه (دفاع عن الأدب) ـ الذي سنقتبس منه بعض ما جاء به ـ وقد تحدث عن التغييرات الخطيرة التي طرأت على حياتنا الحديثة والأخطار التي تهدد حضارة الأنسان ، وعن حياة الادباء وعلاقـة

---

(٣٢) ملخص من مقدمة المترجم ، الدكتور محمد مندور لكتاب (دفاع عن الادب) للمؤلف •

الأديب بالجمهور وبرمانه وكتبه ومهنته .

هؤلاء أدباء عباقرة مشهورون ، ربما سمع بهم القارىء او قرأ عنهم الكثير ، وعلم أشياء لم أذكرها عنهم بهذا التعريف الخاطف . والمجهولون والمغمورون من امثالهم لايحصيهم عدد . وهؤلاء وأشباههم هم الأدباء الذين عناهم وأرادهم أسلافنا ومعاصرونا .

ولعل الاستاذ توفيق الحكيم من أدباء العرب القلائل الـــذين ساروا على نهجهم وطريقتهم لأنه يرى أن الأديب يجب ان يكــون (موسوعياً) . ويحدثنا عن نفسه في كتابه (زهرة العمر) فيقول[٣٣] [كنت اقرأ واقرأ حتى قرأت كل شيء . لم أترك شيئاً في تاريـخ النشاط الذهني لم أطلع عليه . لقـد غرقت في آداب الأمـم كلهـا وفلسفاتها وفنونها ، لم أكن أسمح لنفسي بأن أجهل فرعاً من فروع المعرفة لأني كنت أعتقد أن الأديب في عصرنا يجـــب أن يكون (موسوعياً) ، لذلك بذلت جهدي في أن أحيط بأبرز ما تنتجـــت العبقرية الانسانية . حتى العلوم أردت أن ألمّ الماماً بأهم نتائجها . ففي الهندسة حاولت فهم هندسة (نيومان) المعارضة لهندســـــة اقليدس التقليدية . والرياضيات أردت فهم مراميها العليا في مؤلفات الرياضي (بونكاريه) . والطبيعة والفلك بدأتهما بأسحق نيوتن حتى بلغت نظرية اينشتين التى قرأت فيها وحدها نحو خمسة كتب . وفي علم الحياة قرأت بعض كتب داروين ولامارك ... وفى علوم النفس بدأت بكتب جورج توماس ... وأنتهيت الى أكثر ما كتب عــــن

(٣٣) زهرة العمر ، ص ١٩٣ .

نظريات فرويد ... وخرجت الى العلوم الروحية فقرأت أبحاث (اوليفر لودج) ... حتى علوم الكهرباء حاولت فهم ما أستطيع فهمه من نظريات (فارادي) ... أما قراءتي في القصص التمثيلي فهي أعجب شيء فعلته . لقد قرأت المكتبة المسرحية برمتها ... وبعد ذلك كله انكببت أكتب وأكتب .... لقد كنت أظل أكتب أحياناً تسع أو عشر ساعات في اليوم بلا انقطاع دون أن أذكر الجوع أو أفطن الى اوقات الطعام] .

- ٥ -

فأين أدباؤنا من هؤلاء ؟؟

لم أجد من يصف أدباءنا كما وصفهم الدكتور طه حسين في كتابه (حافظ وشوقي) والأستاذ ميخائيل نعيمة في كتابه (الغربال).

يقول الدكتور طه حسين بعد أن يحلل أسباب تقدم النثر على الشعر[٣٤][وأنا أعلم أن الشعراء سيدهشون ويضحكون، وسيغضبون ثم يثورون ، حين أعرض لهم هذا السبب ، ولكني قد تعودت من شعرائنا الدهش والضحك والغضب والثورة ، وما هو فوق هذا ، فسأعرض عليهم هذا السبب مبتسماً بل ضاحكاً أن لم يقنعهم الأبتسام .

[شعراؤنا جامدون في شعرهم لأنهم مرضى بشيء من الكسل العقلي ، بعيد الأثر في حياتهم الأدبية . فهم يزدرون العلم

---

(٣٤) حافظ وشوقي ، ص ١٤٠ ـ ١٤٦ .

والعلماء ، ولا يكبرون الا أنفسهم ، ولا يحفلـون الا بهـا ، وهـم لذلك أشد الناس أنصرافاً عن القراءة والدرس والبحث والتفكير • كيف يقرأون أو يبحثون أو يفكرون وهم أصحاب خيال ، ومن شأن الخيال أن يصعد الى السماء بجناحيه من غير تفكير ولا بحث ؟ فأما البحث والتفكير ، فشأن العقل ، والعقل عدو الخيال وهو عدو الشعر ، والعقل ميزة الفلاسفة وميزة العلماء ، والشعراء أجل وأعلى من أن يكونوا فلاسفة أو علماء ، انما هم شعراء ! واذا قلت : شعراء ، فقد قلت كل شيء ، أو قل : انك قلت شيئاً لا يُفهم • وأنت تجلس الى شعرائنا وتتحدث اليهم وتسمع لهـم ، فهل رأيـت منهم الا ازدراء لفلسفة الفلاسفة وعلم العلماء وبحث الباحثين ؟

هذا فيما أراه هو السبب الحقيقي لجمود الشعر العربـي في هذا العصر ، فليس من الحق في شيء أن الشعر خيال صرف ، وليس من الحق في شيء أن الملكات الأنسانية تستطيع أن تمايز وتتنافر ، فيمضي العقل ناحية لينتج العلم والفلسفة ويمضي الخيال من ناحية لينتج الشعر ، انما حياة الملكات الأنسانية الفردية كحياة الجماعة ، رهينة بالتعاون ومضطرة الى الفشل والأخفاق اذا لـم يؤيد بعضها بعضاً •

وأنا أستطيع أن أؤكد لشعرائنا أن القدماء من شعراء العرب في جاهليتهم واسلامهم كانوا أصحاب خيال وعقل وعلم ، بل كانوا في الجاهلية يحتكرون العلم احتكاراً دون غيرهم من الناس • فأما في الأسلام فقد كان الشعراء الأمويون يعلمون حظ عصرهم من العلم ، وأستطيع أن أؤكد لشعرائنا أن جريراً والفرزدق كانـا

يعلمان علم الشَّعْبي (٤٥) وابن عباس وغيرهما من علماء عصرهما، وكان أبو نؤاس محدثاً أخذ عن الشافعي ، وكان يشارك المتكلمين في مقالاتهم ويأخذ بحظ موفور من فلسفة الفلاسفة .... فأما المتنبيء وأبو العلاء فالنظر في شعرهما زعيم بأن يثبت لشعرائنا أنهما كانا أصحاب عقل وفلسفة ، وأن حظهما من القراءة والدرس لم يكن أقل من حظ العلماء والفلاسفة الذين عاصروهما .

[وهل كان فكتور هوجو أو لامرتين - من شعراء فرنسا - من الكسل والبطالة حيث يعيش شعراؤنا ؟ كلا ، ان الشعراء الغربيين كشعراء العرب القدماء ، يتصلون بعصورهم اتصالا متيناً ويدرسون ، ومنهم الطبيب ومنهم الطبيعي ومنهم صاحب الكيمياء ، ومنهم من يتصرف في فنون العلم المختلفة ... ويجب أن نكون منصفين وأن نعترف بأن من شعرائنا من تكره طبيعتهم هذا الكسل، وتميل الى القراءة والدرس والتفكير ، وتحب أن تظهر آثار هذا كله في شعرها ، ولكن هؤلاء لايجدون من قرائهم تشجيعاً ، وهؤلاء الشعراء ليسوا كثيرين ، أذكر في مصر : خليل مطران والعقاد ، وفي العراق : معروف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي ...] .

---

(٣٥) الشعبي : هو عامر بن شراحيل بن عبدالشعبي ، أصله من همدان - من حمير - كتب لعامل عبدالله بن الزبير في الكوفة. كان راوية قاصا اخباريا مات سنة ١٠٥ هـ .

- ابن عباس - هو عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب ابن عم الرسول (ص) ، وهو أشهر من أن نعرفه للقاريء .

هذا ما يقوله الدكتور طه حسين ، وعلينا أن نتنبه ونستيقظ وندرس ونحلل واقعنا لنعلم حقيقتنا ومنزلتنا ، وأن نصون كلمة (أديب) أو (فنان) من الأبتذال ، فقد أسرفنا بهما كثيراً ، وصرنا لانرى الا أنفسنا ، وأخذنا نصفق لكل من هب ودب ، ونحرق له البخور ، ومع ذلك نريد أن يكون أدبنا عالمياً وأن تكون لنا الصدارة •

ولعل الأستاذ ميخائيل نعيمة في كتابه (الغربال) يعبر عن هذه الفوضى أحسن تعبير حيث يقول[٣٦] [والآن لابد لي من كلمة عن مقاييسنا العربية بنوع خاص ، فبلاؤنا ليس بأن لامقاييس عندنا ، بل لأن ليس عندنا من يحسن استعمال هذه المقاييس وتطبيق الأدب عليها • فمن سوء طالعنا أننا وكلنا شؤوننا الأدبية الى جرائدنا ومجلاتنا في الغالب • وجرائدنا ومجلاتنا تقيس الأدب بعدد مشتركيها ومناصريها وأعمدتها وحقولها ، ومن كان ذلك شأنه فحاجاته الروحية معدودة محدودة • فأنى له أن يقيس حاجات أمة أو أمم ؟ فاذا قاسها فبحاجاته وحسب ، لذلك لنا في كل يوم شاعر : مطبوع أو عبقري أو نابغة ، وكاتب نحرير وقصيدة عصماء ، او درة يتيمة ، الى ما هنالك من الألقاب والنعوت التي جرائدنا ومجلاتنا المباركة أدرى بها مني • فكثير من القصائد التي تزفها الينا الجرائدوالمجلات (درراً فريدة) لوقسناه بالمقاييس الأدبية الثابتة لوجدناه عارياً من كل شيء سوى الرنة ، وان كان فيه جمال فلا عاطفة ، وان كان فيه

---

(٣٦) الغربال ، ص ٦٢ •

عاطفة فلا جمال ، ولا حقيقة ، وان كان فيه حقيقة فمبتذلة او أو مشوهة .

[لست أدري ورب الكعبة ، كيف تزهر آدابنا وتثمر ما دامت مقاييسها في أيد لاتعرف من الأدب كوعه من بوعه[37] ؟ لا ، ولا أعلم كيف وصلنا الى هذا الحد من الهبوط وعندنا من الآثار الأدبية ما لو قيس بأدق المقاييس لكان راجحاً ؟ كيف يكون أبو العلاء الذي جمع في كثير من قصائده ومقاطعه بين دقة البيان وجمال التنسيق ورنة الوقع وصحة الفكر ، ولا نخجل من أن نلقب (بالامير والنابغة والعبقري) من ليس في شعرهم سوى الزركشة والرنة ؟ فقد تطرب به حين تقرأه ، لكنك تنساه في الحال وتلقيه من يدك وليس في قلبك وتر يتحرك ولا في رأسك فكر يفيق .

[ان حاجتنا ليست الى مقاييس أدبية ثابتة ، فهي وافرة لدينا ، انما الحاجة الى من يحسنون استعمال هذه المقاييس ، لاسيما في دورنا الحالي ، لأنه دور انتقال . حاجتنا الى كتاب وشعراء يقيسون ما يكتبون وينظمون بهذه المقاييس ، فيسيرون وتسير معهم آدابنا الى الصراط القويم ، والى ناقدين متمحصين يميزون بين غث الأدب وسمينه ، فلا يحسبون الاصداف درراً ، ولا الحباحب كواكب] .

---

(٣٧)الكوع : طرف الزند الذي يلي الابهام . والبوع : عظم يلي ابهام الرجل ، وفي المثل الشائع : فلان لايعرف كوعه من بوعه ، كناية عن غفلته وجهله وعدم تمييزه أبسط الامور .

هذه صورة واقعنا الأدبي يصورها أديب مفكر لها قيمتها وخطرها وهي تستحق التأمل والدراسة ، وسنظل نتمثل بها الى أن نهتدي الى الصواب ونعي واقعنا ونضع قدمنا في محلها .

ان وضع المكاييل والموازين بأيد تجهل ما تزن ولا تفرق بين مكيال ومكيال ، ظاهرة خطيرة جداً ، وهذا ما نجده مع الأسف الشديد ، وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، بل صرنا نجد الدعاية المركزة والمكثفة على أشياء ليست من الأدب أو من الفن في شيء ، وكلها بفعل الجرائد والمجلات .

وخطورة هذه الظاهرة المؤسفة ، لها تأثير عظيم جداً على الجيل الناشيء الذى سيفتح عينيه فيرى الأمور على غير حقيقتها ، والألوان على غير صبغتها ، وبذلك نفقد الماضي والحاضر والمستقبل .

وتعجبني كلمة لسقراط يرى فيها[٣٨] [أن الأنسان لايمكن أن يعيش كما ينبغي الا اذا حقق عملياً القاعدة المكتوبة على معبد دلفي Delphes اعرف نفسك بنفسك] .

(٣٨) المشكلة الاخلاقية والفلاسفة ، ص ٣٤ .

الأديب يلتزم

الألتزام في اللغة هو الأعتناق ، وألتزم بالشيء أي اعتنقـه ، وأعتنق الامر أخذه بجد . والأديب الملتزم هو الذى يعتنق مبـدأ انسانياً أو عقيدة أو مذهباً دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً أو فلسفياً ... ثم يلتزم به ويدعو اليه ويتحمل تبعاته بنفس راضية مطمئنة .

والألتزام الذى أعنيه هو الذي ينبع حراً من روح الأديب ونفسه وطبعه وقلبه وعقله ، لا مُرغَماً عليه ولا طالباً جـاها أو أو سلطانا أو ثراء .

ولعل الألتزام في الأدب يكون أكثر ضرورة في المجتمعات التي تحدث فيها الرجّات الاجتماعية أو الاقتصادية أو الفكريـة ، لان الأديب يجد نفسه ـ من حيث يدري أو لايدري ـ ملزماً ومرغما على نُصرة الحق والأخذ بيد المظلوم والدعوة الى الخير والمشاركة الوجدانية مع أبناء مجتمعه أو أبناء البشرية كلها .

ففي الولايات المتحدة الامريكية مثلا ، لم تظهر (مدرسـة الألتزام الاجتماعي) في الأدب والنقد الا في سنة ١٩١٤ مبدأ الحرب العالمية الاولى وقد أشتد ساعدها وكثر أنصارها عندما بدأت الأزمة الاقتصادية العالمية في (الثلاثينات)من هذا القرن ، فظهرت طبقـة في المجتمع كان من واجب الأديب أن يشعر بشعورها وان يدافع عنها ، وهي الطبقة الفقيرة المحرومة المستغَلة وطبقات رأسماليـة

يجب على الأديب أن يحدد نشاطها واستغلالها ، ويوقفها عند حدودها .

[39] [كانت هذه المدرسة تُعرف بمدرسة الألتزام الأجتماعي لانها تفهم الادب على أنه أداة في خدمة المجتمع وتفهم أن لكل أديب رسالة اجتماعية ينبغي أن يلتزمها ويدعو اليها] وبذلك ظهر في أمريكا كتاب وأدباء عديدون ، يدعون هذه الدعوة ، فألفوا كتباً عديدة ، وكانوا يميزون بين الألتزام الذي يكون طوعاً لا اكراه فيه ، نابعاً من نفس الأديب وعقله وقلبه ، وبين (الألـزام) الذي يكون بتأثير خارجي يُدفع اليه الاديب دفعاً[40] [وكلهم لايزال يربط بين الأدب والمجتمع ، ولكنهم يعلنون نفرتهم من كل تجنيد للأديب أو توجيه من الخارج] .

ولنا من تراثنا نماذج حية من أدباء ملتزمين .

ففي العصر الجاهلي كان الشاعر ملتزماً بمجتمعه القبلي ، يدافع عنه ويفخر به بكل ما لديه من طاقة وموهبة أدبية ، لأنه يشعر بأرتباطه بالقبيلة دماً وروحاً ومصيراً ، فلا هو مرغم ولا طالب ثراء ، بل في روحه شيء يدفعه فينطق لسانه .

واذا كان هذا الالتزام محدوداً في نطاق القبيلة ، فالشاعر

---

(39) دراسات في الادب الامريكي ، ص ٢١٣ . في هذا الكتاب فصل خاص عن النقد الادبي في أمريكا وعن الادباء والنقاد الذين التزموا بهذا المبدأ .

(40) المصدر السابق ، ص ٢١٥ .

معذور ، لأنه يعيش في مجتمع قبلي ، والأنسان ابن بيئتـه ، ولا يستطيع الخروج عنه وقتئذ ، وخير مثال على ذلك هم شعراء (أيام العرب) وحروبها ، ومع ذلك فقد ظهر شعراء خرجوا عن نطاق القبيلة وتقاليدها ، أولئك هم الشعراء[٤١] (الصعاليك) .

اولئك الشعراء ثاروا على المجتمع القبلي والأجتماعـي والاقتصادي . وشعراء هذه الثورة (ملتزمون) . كانوا أصحاب نجدة ومروءة ، كرماء أشداء ، يعرفون مجاهل الصحراء ودروبها ووحوشها ، عدّائين يسبقون الخيل ، وكانوا يعطفون على الضعفاء والفقراء ويبذلون ما يحصلون عليه من غاراتهم وسلبهم في سبيـل الفقراء وذوي الحاجات ، لذلك جمعوا بين النهب والسلب وبـين الكرم ونصرة الضعيف .

وربما كان هذا تناقضاً في ظاهر الأمر ، لكن طبيعة الحيـاة الأجتماعية في ذلك الزمن وما كانت عليه الحياة القبلية من الغزو والسلب والنهب ، جعلتهم يسلكون هذا السلوك نفسه ، ولكل ثورة سلاحهـا .

وكان هؤلاء من قبائل شتّى ، جمعتهم الفكرة فذابوا فيهـا والتزموها ، وقاتلوا وسلكوا الأخطار في سبيلها . كان تأبّط شراً من قَيْس عَيْلان ، والشَنْفري الأزدي من اليمن ، والسُلَيْكُ بن السُلَكة من تميم وعُرْوَة بن الورد من عبس وغيرهم .

---

(٤١) الصعاليك ـ جمع صعلوك وهو اللص الفقير .

وشعر هؤلاء يمثل مذهبهم كل التمثيل ، مع الصدق والصراحة والقوة والنجدة والمروءة .

وهذا عُروة بن الوَرْد الذي يلقبونه (بعروة الصعاليك) - لأنه كان يجمع الصعاليك ويقوم بأمرهم اذا اخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معاش - كان معاوية بن أبي سفيان يقول[٤٢] [لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج اليهم ... وقال عبدالملك بن مروان : ماسرني أن أحداً من العرب ولدني ممن لم يلدني الا عُروة بن الورد] .

وعروة بن الورد من أحب الشخصيات بين شعراء الجاهلية لما أتصف به من أخلاق كريمة وآداب انسانية ورأي راجح وروح اشتراكية تظهر في كل ما صنعه وبذله من عطف على الصعاليك والفقراء والمرضى والضعفاء . ومن شواهد التزامه بعقيدته قوله مخاطباً زوجته[٤٣] :

دعيني أُطَوِّفْ في البلادِ لعلّني
أفيدُ غِنىً فيه لذي الحقِّ مَحْمَلُ[٤٤]

---

(٤٢) الاغاني ، جـ٣ ، ص ٧٣ .

(٤٣) حماسة ابي تمام ، جـ٢ ، ص ٤٥ .

(٤٤) يريد اتركيني أكثر من السفر في البلاد لعلني أستفيد مالا يكفي ذوي الحقوق وأحمل عنهم أثقال الديات .

أليس عظيماً أن تلم ملمة
وليس علينا في الحقوق معول ؟؟[٤٥]
فان نحن لم نملك دفاعاً بحادث
تلم به الأيام فالموت أجمل –

ولما ظهر الأسلام التزم به بعض الشعراء ودافعوا عنه ، وقاتلوا في سبيله ، وحثوا الناس وحببوه اليهم ، وعندما ظهر (الخوارج) بنتيجة (التحكيم) بين الأمام علي ومعاوية بن أبي سفيان ، وخرجوا عليهما ، ثم طالبوا أن تكون الخلافة لعامة المسلمين (وان أكرمكم عند الله أتقاكم) ، برز منهم شعراء ملتزمون خرجوا على تقاليد الجاهلية والعصبية القبلية ، ولم يسلكوا طريق الشعراء : الفرزدق وجرير والأخطل الذين عاصروهم ، لأنهم كانوا متأثر بتعاليم الاسلام وهم فرسان الحركة وقادتها وزعماؤها ، لذلك كان أدبهم قوياً رائعا ، صادراً من روح مقاتل في سبيل عقيدة ، لايقصدون مدحاً لأحد أو هجاء ، كما فعل شعراء زمانهم ، بل كانوا يحثون على المروءة والشجاعة والأقدام ونصرة الحق والموت في سبيل العقيدة وارضاء الله ، وسموا أنفسهم (الشراة) متمسكين بالآية الكريمة[٤٦] [ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون] وكانوا يزنون الأدب

(٤٥) تلم : ألم به المرض أي أصابه ، والملمة ـ النازلة الشديدة من نوازل الدنيا ، والمعول ـ الذى يستعان في الشدائد به ٠

(٤٦) سورة التوبة الآية ١١١ ٠

من شعر وخطابة بميزان القوة والاخلاق والحث على الجهاد في سبيل الحق ، لذلك فقد كان شعرهم وخطبهم ورسائلهم أصدق صورة أدبية لمذهب ديني سياسي .

ونحن نجد في كتاب (الكامل) لأبي العباس المبرّد ٢٨٥ هـ - ٨٩٨ م طائفة كبيرة من شعرائهم وخطبائهم وأخبارهم ، فهذا عِمْران بن حِطّان وهو من فحول شعراء الخوارج(٤٧) [وكانت له مسائل كثيرة من أبواب العلم في القرآن والآثار ، وفي السِيَر والسنن ، وفي الغريب وفي الشعر] ويقول عنه المبرّد(٤٨) [مرّ عِمْران بن حِطّان بالفرزدق وهو ينشد ، فوقف عليه فقال :

يا أيّها المادحُ العبادَ ليُعْطَى
ان للّه ما بأيدي العبادِ
فاسألِ اللهَ ما طلبتَ اليهم
وأرْجُ فضلَ المُقَسِّم العوّادِ
لا تقلْ للجوادِ ما ليس فيه
وتُسَمِّ البخيلَ بأسمِ الجوادِ

ولما خرجت حركة الخوارج عن مبادئها - لأسباب عديدة -

(٤٧) الكامل ، جـ٣ ، ص ٢٦٢ .
(٤٨) الكامل ، جـ٢ ، ص ٢٠٧ . يجد القارىء في الجزء الثالث من كتاب (الكامل) حديثا طويلا عن الخوارج وحروبهم وشعرائهم وخطبائهم ورسائلهم .

وتفرقوا ، وأنتهت حركتهم ، ضاع الكثير من شعرهم وخطبهم ورسائلهم .

وألتزم بعض الشعراء بالمذهب الشيعي ، وأيدوه ودافعوا عنه ، ومدحوا وهجوا ورثوا ، وناقشوا وأتوا بالروائع من الشعر ، لكن شعراء الخوارج يختلفون عن شعراء الشيعة . شعراء الخوارج اختصوا بمبدئهم وناضلوا وقاتلوا وزهدوا في الحياة وعدوا المال فتنة وشراً وشعرهم شعر نضال ، وشعراء الشيعة سلكوا فنون الشعر كلها ، وتكسب بعضهم ، ومع هذا فشعر الشيعة أغزر وشعراؤهم أكثر عدداً وأعلى منزلة شعرية .

ثم لما توسعت الفتوحات وأصبحت الخلافة ملكاً وسدا وتطورت الحياة الأجتماعية والثقافية ، ظهرت حركات فكرية واجتماعية ، وبرز شعراء التزموا بعضها عن عقيدة وايمان ، ولكن لسوء حظ بعضهم ــ على قلتهم ــ أن تلك الحركات خرجت عن مبادئها أو تشوهت عما أرادها مفكروها ومؤسسوها ، لسبب أو لأكثر، لذلك وجدنا بعضهم قد انقلب عليها أو لاقى حتفه بسببها . والملتزمون من الأدباء بالمذاهب الدينية والسياسية والاجتماعية حديثهم يطول ويطول ، وما من أدب عالمي حوى كل شيء كما حواه الأدب العربي .

والأديب ذو الرسالة الأنسانية ــ لو أنصفناه ــ معذور ، لان الطريق الذي يسير فيه والرؤية الواضحة التي يراها ، قد لاتكون

عند غيره من الدعاة والقابضين على الزمام ، وبذلك يكون أحيانا في وادٍ والذي يلتزم به في وادٍ آخر .

- ٢ -

ومع كل هذا ، فلدينا نماذج رائعة لأدباء ملتزمين من طراز آخـــــر .

وكنت حدثتك عن ابن قتيبة العالم الأديب الموسوعي ، وأذكر لك أنه عاصر ثمانية من الخلفاء العباسيين - من المعتصم الى المعتمد - ولكنه لم يتصل بأحدهم ، ولم ينجرف في سياسة الدولة .

وعندما ضعف سلطان الخلفاء ، وصار بعضهم ألعوبة بيد الجند والأمراء والوزراء ودسائس القصر ، بدأت (الشعوبية) تنشـــر سمومها ، فظهر الحاقدون على العرب والحاسدون والناقمون عليهم، وأعلنوها حرباً شعواء ، وألفوا في مثالبهم وشنّعوا عليهم ، فأنبرى لهم ابن قتيبة - وهو فارسي الأصل أباً وأماً - وألف كتابـه[٤٩] (كتاب العرب) لا تقرّباً من سلطان ولا تحبّباً لأحد ولا حصولا على جاه أو مال ، انما الدافع هو شعور العالم والأديب الملتزم الذي يرى الحق مغلوباً مقهوراً والباطل غالباً منصوراً .

ويقول في (كتاب العرب)[٥٠] : [ولم ارَ في هذه الشعوبية

(٤٩) نشر الاستاذ محمد كرد علي (كتاب العرب) في كتابه رسائل البلغاء ص ٢٦٩ .

(٥٠) المصدر السابق ، ص ٢٧٠ .

أرسخ عداوة ولا أشد نصباً للعرب من السِفْلَة والحِشْوَة ، وأوباش النَبَط ، وابناء أكَرَةِ القُرى ، فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم ، وهم أهل الديانة ، فيعرفون مالهم وما عليهم ويرون الشرف نسباً ثابتاً] .

وابن قتيبة الأديب الملتزم ، في كتاب العرب ، هادىء متزن منصف ، واثق مما يدافع عنه ومن صدق ما يقول ، يضرب الأمثال ويذكر فضائل العرب ويقرع الحجة بالحجة ، ويتحدث عن ايمان راسخ في عقله ودمه وقلبه بأسلوب الذهن المفكر لا بأسلوب العاطفة الجيّاشة . والحديث يطول عن هذا الكتاب وما فيه من منطق وبلاغة وشعر وحديث ورواية .

وأبو العلاء المعري ٤٤٩ هـ ١٠٥٧ م خير مثال للاديب الشاعر الملتزم ، وليس بين شعراء العربية من كافح وناضل من أجل الأنسان كما فعل أبو العلاء .

نشأ في عصر عجيب غريب ، في كل بلد أمير أو سلطان – في مصر والشام والعراق – فيهم من يفرض الضرائب والجزية ويصادر الأموال ويسجن الناس بغير نظام او قانون ، وفيهم الطاغية الظالم الذي يجد له شاعراً يهتف له ويطبّل ويزمّر ، وفيهم من ثار عليه

السفلة – بكسر السين وسكون الفاء – هم الطبقة السفلى . والحشوة : الرديء من كل شيء . والاوباش : سفلة الناس واخلاطهم . والنبط : قوم من العجم كانوا ينزلون العراقين – الكوفة والبصرة . والاكرة: جمع أكار – بتشديد الكاف – وهو حارث الارض .

أقرب الناس من أبناء أسرته او بطانته ، وهم يحتربون ويقتتلون مع بعضهم وهكذا أفسدوا دينهم ودنياهم ، والناس على دين ملوكهم لا حول ولا قوة لهم .

ويقول :

تسامتْ قُريشٌ الى ماعلمت (م)

وإسْتأثَر التُرْكُ والدَّيْـلَـمُ

وهل يُنكر العقلُ أن تستبدّ م

بالمُلْكِ غانِيَـةٌ غَـيْـلَـمُ[51]

هذه الحالة كانت تؤلم أبا العلاء الأنسان ، فثار على الدنيا ، هاجم الحكام والساسة ، ومجّد العدل وأهله ، وندّد بالظلم ومـا يعقبه من ويلات على الظالم والمظلوم ، وهاجم الأغنياء والغنـى ، ودعا الى انصاف الفقير واشتراكه في مال الغني :

لو كان لي أو لغيري قَدْرُ أنْمُلَـةِ

من البسيطة خِلْتُ الأمـرَ مُشْتَركا

وهاجم رجال الدين والقسس وأحبار اليهود وأرباب المِـلَل والنِحَل ، وحمل على الشعراء .

فِرَقاً شعرتُ بأنهـا لا تَقْتني

خيراً وأن شِرارَها شعراؤهـا

(51) الغيلم : الجارية المغتلمة ، أي المنقادة للشهوة .

وكل ما قرأه وسمعه أبو العلاء ، دعاه الى التشاؤم والتبرم بالحياة وبأبناء هذه الدنيا ، لذلك ثار نورته العارمة على الجميع .

ومن يقرأ (اللزوميات) و (رسالة الغفران) يجد مدى حماس أبي العلاء في الدفاع عن الانسان وحرصه وأشفاقه عليه ، بأسلوب ساخر هازىء ، لذلك ثار عليه الناس من كل جانب وألبوا عليه العامة ، وأتهموه بالزندقة فأراد قتله محمود بن نصر بن صالح أمير حلب .

حدث كل هذا مجاراة لسلطان أو أمير أو حسداً منهم لفضله وجلال قدره وعبقريته ، وكان يقول :

فأصبحتُ محسوداً بفضليَ كُلّه

على بُعْدِ أنصاري وقِلّةِ مالي

وهكذا نجد أبا العلاء بين خصم يوغل في سبه والتهجم عليه ، ويجده ضالاً زنديقاً ، وبين معتدل منصف يضعه في مصاف العباقرة ومنزلة الهُداة المصلحين .

— ٣ —

ونورة أبي العلاء تذكرني بعبارة[٥٢] (ستيفن سبندر Stephen Spender في كتابه (الحياة والشاعر)[٥٣] : [فالشاعر يضع نصب عينيه دائماً الظروف التي تحيط بالحياة ، اذ انه لا يمكنه

---

(٥٢) ستيفن سبندر ــ كنت حدثتك عنه في ص ٢٠ .

(٥٣) الحياة والشاعر ، ص ٣٦ .

أن يجرب الحياة دون أن يضطر الى التفكير في المشاكل الانسانية الجوهرية ، وما النُظم الانسانية الا محاولات لحل هذه المشاكل حتى نستطيع ـ عملاً ـ أن نحيا الحياة ، لذلك نجد أن الشاعر مُجبَر على أن يعيد النظر في هذه الحلول .... وبهذا المعنى لا شك أن الشعر نقد للحياة . وهكذا نرى أن الأدب العظيم كله يتأمل العالم والانسان وقوانينه وأديانه ، ويتساءل : لماذا ؟ تجري الأمور على هذا النحو بينما من الممكن أن تجري على نحو آخر ؟ وهكذا بمعنى أو بآخر نكون صادقين حين نقول : ان وراء الأدب العظيم دافعاً ثورياً دائماً] .

وجون ملتون ـ الذي حدثتك عنه ـ عندما قام (كرمويل) Cromwell بثورته في انكلترا ضد الملك شارل الاول سنة ١٦٤٩م وقضى على جيشه وحكم عليه بالأعدام بسبب استبداده وخنق الحريات وكثرة المنازعات الدينية والسياسية ، وأعلن الجمهورية(٥٤) [كان جون ملتون من بين أصدق المناصرين لهذه المبادىء السامية ، التي كانت وقتئذ في مهدها ـ لأنها تغيرت بعد ذلك وخرجت عن مبادئها ـ تناضل طلباً للبقاء ، كما كان أفصحهم لساناً في الدفاع عنها ..... لأن ملتون كان يمقت الطغيان أشد المقت ... وليس ثمّة عمل أشد خطراً من حمل مشعل الحقيقة المنير الى الدياجير الموبوءة التي لم يضئها قط نور ، لكن ملتون كان يختار ، وكان يسره أن يختار

(٥٤) ملتن ، ص ٦٦ ، ٩٨ .

إقتحام تلك الظلمات وتعريض نفسه لأشد الأخطار] .

وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ظهرت في انكلترا طبقة من الأدباء الشباب كانوا يحسون بخطورة الوضع الاقتصادي والاجتماعي وسيطرة الآلة الحديثة وخطر الحروب وبخاصة لما ظهرت الفاشية في ايطاليا والنازية في المانيا في (الثلاثينات) من هذا القرن[٥٥] [وكان ثلاثة أدباء قد اجتمعوا وطبعوا كتبهم ودواوينهم بين سنتي ١٩٢٩ ـ ١٩٣٢ وأنضم حولهم عدد من الكتاب الشباب وأوجدوا مدرسة جديدة تجمع مقاصدهم . فتوسع وعيهم الاجتماعي ، وقد كان وعيهم السياسي كبيراً ، لذلك كتبوا كثيرا ضد الحروب ..... وعندما ساءت الحالة في هذه الفترة ، بدأ النقد ، الاجتماعي والشعور الثوري ينمو عالياً مسيطراً على أعمالهم ..... وفي هذا الوقت بدأت الحرب الاهلية الاسبانية ١٩٣٦ ، وكان الدافع السياسي ـ الذي كانت له جذور عميقة في فكرة ان العمل الثوري وحده ، ينقذ الحرب العالمية التي لاحت قريبة جداً ـ قد أصبح قوياً جداً ومنتشراً بين المثقفين من كل طبقة ، وكانوا يرون أنه من الممكن عقد مؤتمرات عالمية لأشهر كتاب العالم للعمل ضد الفاشية في اسبانيا ، لذلك حمل

---

(٥٥) من كتاب : English Language and Literature P. 350

الشعراء الثلاثة هم سبندر Spender ودي لويس D. Lewis واودين Auden . والشاعر سبندر هو ستيفن سبندر الذى حدثتك عنه وقد ألف كتابه (الحياة والشاعر) بعد عودته من اسبانيا واشتراكه في الحرب الاهلية . والشاعران اللذان قتلا في الحرب الاسبانية هما John Corm Ford و Palph Fox

السلاح كثير من الكتاب الشباب وقاتلوا في اسبانيا بجانب الجمهورية وضد الفاشية ، التزاماً بدعوتهم ، فقتل منهم كاتبان من ألمع الموهوبين ، وقتل عدد كبير من المتحمسين كذلك] .

وهذا الشاعر الألماني والكاتب المسرحي الكبير (برتولت برخت ١٩٥٦)[٥٦] ـ [ولد من عائلة متوسطة الحال ، ودرس الطب ، وعمل ممرضاً عسكرياً في الحرب العالمية الاولى فعايش بشاعات الحرب في المستشفيات ، وعندما برزت النازية في المانيا حاربها ، فتعرض لقمعها ومطاردتها ، وقد أمر هتلر بحرق كتبه وكتب زملائه كما حصل ضد الكتاب المتنوّرين في القرون الوسطى ، لذلك اضطر للخروج من المانيا ، وبدأ يتنقل في الدنمارك وفنلندا والولايات المتحدة الامريكية ..... وأتقن عدة لغات وقد أكسبته الحرب العالمية الثانية تجارب ومحناً أنضجته وسمت به بحيث أصبح من أكبر الكتاب المسرحيين في العالم ، وله آراء ونظريات في المسرح ، تعد الآن من خير ما قدمه كاتب مسرحي في هذا العصر . وهو يدعو الى أن يكون المسرح لتثقيف الجمهور لا لتسليته واضحاكه ، وقد احتفل هذا العام بالذكرى الثمانين لميلاده . والمسارح في بعض العواصم العالمية راحت تحتفل بذكراه على طريقتها ، وذلك بأحياء أعماله المسرحية الخالدة] .

هكذا التزم الأدباء بمبادئهم ـ في الشرق والغرب ـ وتحملوا التبعات بنفس راضية مطمئنة مهما كانت النتائج ، لا يطلبون من أحد جزاء أو شكورا .

---

(٥٦) مختصر من مجلة الوطن العربي ، باريس العدد ٦٧ في ٢ حزيران ١٩٧٨ ، ص ٦٦ .

أدب الملتـــزم

اذا كان القارىء يؤمن بأن الأدب للانسانيـة ، للمجتمـع ، للشعب ، للجمهور ـ بكل افراده ـ كما أؤمن ، عندئذ نكون قـد اختصرنا الحديث عن (الفن لأجل الفن) و (الفن لاجل المجتمع) والآراء المتضاربة ، وحديث المؤيدين والمخالفين •

ومنذ دافع أرسطو عن الشعر وخالف رأي أستاذه أفلاطـون في[1] [أن الشعر عمل غير جديـر بمقـام الذكاء الانساني ، وأنـه من أشد بواعث الفساد ••• كان أرسطو يستبعد تماما نظرية الفن لاجل الفن •••• اذ لابدّ ان تكون للشعر وظيفة وتأثير في ضروب النشاط البشري] •

وهذا أي• أي• رتشاردس I.A. Richards من اشهر النقاد المحدثين في انكلترا يقول[2] [وسوء أدراك آخر ، محتمل ، لايمكن تركه بدون ذكره ، نشأ من العلاقة مع (مذهب الفن لاجل الفن) هذا المذهب الذي أصبح عتيقا بتصميم قطعي • وسوء الادراك هذا يهمّ ما نسميه : بالتأثيرات الخلفية في تقييم العمل الفني]•

والاديب الملتزم المرتبط بمجتمعه ، الذي ينبع الالتزام حرا من روحه وقلبه وفكره ، أمامه مسؤوليات ضخام جسام ، تأخذ وقتـه

---

(١) قواعد النقد الادبي ص ٧١ • رأي افلاطون في الشعر مفصل في جمهورية افلاطون • ترجمة حنا خباز ص ٢٥٤ •

(2) Principie of Literary Criticism. P. 71.

وجهده وأعصابه ودم قلبه ، لأن الأنسان مخلوق عجيب غريب ، ولغز متحيّر ، ومن يعالج قضاياه ومشاكله يحتاج الى موهبة نادرة وثقافة واسعة تشمل شتى العلوم والمعارف ، وبخاصة في هذه السنين التي أستيقظت فيها الشعوب وأصبحت تطالب بحريتها ، وتثور على الأستعمار والظلم وتفتحت عيونها نحو حياة أفضل ، وفي هذه السنين كثرت الأختراعات والأكتشافات فأقبل الأنسان عليها وأستنام اليها وتقلّب في نعيمها مغمضاً عينيه يحيط به ، كل ذلك لأشباع رغباته التي لا حدود لها .

هذا التقدم الصناعي لم يصاحبه تقدم اجتماعي أو حضاري ، بأعتراف كل المفكرين الحريصين على حضارة الأنسان ومستقبله ، لأنه أحدث انفجاراً وبعثرة في كل شيء ، فتغيرت المعالم والمفاهيم ، وأهتز كيان الأسرة ، وضعفت القيم الروحية والاجتماعية ، وازدادت الهجرة الى المدن ، فتعقدت الحياة وكثرت الأمراض العصبية والنفسية ، وأزداد التنافس على الحصول على متع الحياة التي لاآخر لها بكل الوسائل ..

ان الأديب اليوم غير أديب الأمس . أديب اليوم يجب أن يثقف ويعي ويتقن أدوات فنه اتقاناً تاماً ، ويوسع أفق تفكيره في كل قضية يعالجها أو يدرسها ويستوعب ما يستطيع من علوم زمانه ، ويطلع على الأتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية

التي تحدث في عالمنا الذي يتطور سريعاً سريعاً .

هذا الأديب اذا لم ينتبه الى ما حوله ومن حوله لا يستطيع أن يؤدي رسالته التي يلتزم بها ، بل سيجد نفسه معزولاً في متاهة لا أول لها ولا آخر ، لان رسالة الاديب في هذا العالم المتطور الذي نعيشه ليست تخدير الانسان بالوعظ والنصائح والشعارات ، وتسليته بالقصص والصور الشعرية الخيالية البراقة الخداعة التي تخاطب عاطفة ولا تخاطب عقلاً ، بل رسالته هي حثه على الوعي واليقظة والتفكير وتزويده بما يثقف عقله ويدفعه الى ما ينميه ويرقيه ليكون عضواً نافعاً في مجتمع حضاري .

والأستاذ توفيق الحكيم على حق عندما يقول في كتابه (فن الأدب)[٣] : [ان مهمة الكاتب ليست في مجرد اقناع القارىء ، بل في حمله على التفكير ... ان الأدب طريق الى ايقاظ الرأي ، لا أريد من الكاتب أن يريح قارئه ويلهيه ، انما أريد أن يطوي القارىء الكتاب فتبدأ متاعبه ... ان مهمة الكاتب ليست في تخدير النفوس بل في تحريك الرؤوس .... الكاتب مفتاح للذهن يعين الناس على اكتشاف الحقائق والمعارف بأنفسهم لأنفسهم .

[ان مهمة الكاتب هي تربية الرأي ، وكل كاتب لا يثير في الناس رأياً أو فكراً أو مغزى يدفعهم الى التطور أو النهوض أو

---

(٣) فن الادب ص ١٧٨ .

السمو على أنفسهم ، ولا يحرك فيهم غير المشاعر السطحية العابثة ، ولا يُقِرُّ فيهم غير الأطمئنان الرخيص ... ولا يمنحهم غير الراحة الفارغة ، ولا يغمرهم الا في التسلية الساقطة والملذات السخيفة التي لا تكوّن فيهم شخصية ولا تثقف فيهم ذهنا ولا تربي فيهم رأياً ، لهو كاتب يقضي على نمو الشعب وتطور المجتمع] .

- ٢ -

ثم ان هناك أصواتاً تنادي بخطورة المرحلة التي تمرّ بها البشرية ، وتحذّر من موجة الأختراعات التي أوجدتها الصناعة الحديثة ، وترى أن الحضارة في خطر ونحن مقبلون على بربرية لا مثيل لها ، لأن حضارة الأنسان اذا كانت غايتها الركض وراء المادة والأستمتاع والأقتناء والأستهلاك مع فقدان الناحية الروحية والقيم الأنسانية والسمو الخلقي ، ان مثل هذه الحضارة لا يمكن أن تكون الا حضارة منهارة لن تدوم .

ومن المؤسف ان هذه الاصوات لا تنبه الغافلين ولا توقظ النائمين ، لاننا نجدها في قليل من الكتب ، ولا نجدها في الجريدة والمسرح والاذاعة والسينما ، وربما نجد في هذه ما يشجع على الاستمرار فيما نحن فيه .

وانا انقل للقارىء بعض مايقوله بعض هؤلاء المفكرين الحريصين

على حضارة الانسان وسعادته ، ليعرف مسؤولية الاديب الملتزم في هذه الظروف ، وما يجب ان يلتزم به بعد ان اصبحت الحياة غير ما كانت عليه قبل سنين قليلة ، والاديب الملتزم شاهد عصره كما يقولون .

يقول الدكتور[٤] (ألكيس كاريل) الحائز على جائزة (نوبل) لابحاثه الطبية ، في كتاب (الانسان ذلك المجهول) بعد ان يشرح في مقدمته دوافعه لتأليف الكتاب وخوفه على حضارة الانسان، وسبب ندائه كل المفكرين ليؤدوا واجبهم ، يقول :[٥] [ان التقدم الهائل الذي احرزته علوم الجماد على علوم الحياة ، هو احدى الكوارث التي عانت منها الانسانية ، فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا . اننا قوم تعساء لاننا ننحط اخلاقيا وعقليا . ان الجماعات والامم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هي ـ على وجه الدقة ـ الجماعات والامم الآخذة في الضعف ، والتي ستكون عودتها الى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها اليها ، ولكنها لا تدرك ذلك ، اذ ليس هناك ما يحميها من الظروف العدائية التي شيدها العلم حولها .

---

(٤) الدكتور الكسيس كاريل ـ ولد في فرنسا وحصل على اجازة الطب ورحل الى الولايات المتحدة ، وحصل على جائزة (نوبل) سنة ١٩١٢ ثم عاد الى فرنسا واستمر في أبحاثه الطبية حتى توفى سنة ١٩٤٤ . وقد طبع كتابه عدة مرات وترجم الى لغات عديدة .

(٥) الانسان ذلك المجهول ص ٤٤ .

(6)[انا لن نصيب اية فائدة من زيادة عدد الاختراعات الميكانيكية، وقد يكون من الاجدى الا نضفي مثل هذا القدر الكبير من الاهمية على اكتشافات الطبيعة والفلك والكيمياء ، فحقيقة الامر : ان العلم الخالص لايجلب لنا مطلقا ضررا مباشرا ، ولكن حينما يسيطر جماله الطاغي على عقولنا ، ويستعبد افكارنا في مملكة الجماد ، فانه يصبح خطرا ، ومن ثم يجب ان يحول الانسان اهتمامه الى نفسه ، والى السبب في عجزه الخلقي والعقلي ، اذ ما جدوى زيادة الراحة والفخامة والجمال والمنظر ، وأسباب تعقيد حياتنا ، اذا كان ضعفنا يمنعنا من الاستعانة فيما يعود علينا بالنفع ؟] .

(7)[ان الانسان يعلو كل شيء في الدنيا ، فاذا انحط وتدهور ، فان جمال الحضارة ، بل عظمة الدنيا لن تلبث ان تزول وتتلاشى] .

وهذا الاديب العالم (جورج ديهاميل) عضو الاكاديمية الفرنسية يقول في كتابه (دفاع عن الادب)(8) : [وكل هذه الاختراعات العجيبة التي تبدو لاول نظرة انها قد أخترعت لتزيد الانسان ذكاء ، ولتفتح عن عينيه وأذنيه ، ولتثير ملكاته وتنهض به فوق مستواه ، نراها تعمل في دهاء وأستتار على ان تنيمه وتخدعه وتحط من آماله وتوقف قوته .... ومصدر ما يقضّ مضجعي

---

(6) المصدر السابق ص ٦٠ .

(7) المصدر السابق ص ١١ .

(8) دفاع عن الادب ص ٦ ، ١٤ .

باستمرار هو ذلك التناقض الذي يزداد كل يوم وضوحا بين اكتشاف العقل وبين الحالة الاخلاقية وسير الحياة الاجتماعية ، فعلماؤنا سابقون نظمنا بألف سنة ، حتى ان المشرع لتنقطع انفاسه في تتبع المخترع • اما عن نفسي فان مظاهر العبقرية العلمية تملؤني دهشة وغبطة ، ولكني ادعو الله ان لايزيد تطبيقها من فوضى في حياتنا • وانا لا اكتفي بالدعاء بل اوضح وجهة نظري] •

وهكذا فان الادباء المفكرين الملتزمين يوقظون الشعوب ويوجهونهم ويضعون لهم المثل العليا ، ويعبدون لهم طرق المسيرة ، لانهم يدركون خطورة التيارات التي تقضي على حضارة الانسان وسعادته ، ويقفون امامها وجها لوجه بأسلوبهم المناسب لمواهبهم وثقافتهم ، وقد لعب الادب دورا كبيرا في الاصلاحات الاجتماعية وثورات الشعوب •

[9][ان واجب الافراد ذوي العقول الخلاقة اذن ـ الذين هم ضحية للآلة الحديثة ـ ان يدربوا مخيلاتهم حتى يتمكنوا من خلق آثار فنية من شأنها ان تجعل غيرهم من البشر يحس بالوجود الانساني والحاجات التي يتطلبها • واجبهم ان يجعلوا غيرهم من البشر يدرك طبيعته الانسانية ، ويولدوا في نفسه حبا لاخوانه في الانسانية ، ويبعثوا فيه وجهة نظر خاصة ، تجعله يقبل عن رضى

(٩) الحياة والشاعر ص ٢٩ •

كل تغيير يرمي الى تحقيق حياة أعزز واكثر امتلاء] .

وامام الاديب العربي ، الان ، مجال واسع للتنبيه والتذكير وايقاظ الغافلين ، والتيارات الحديثة الخطيرة سوف تغزونا ، ونحن غير مستعدين لها . والانسان كما يقولون : مقلد ممتاز . والخطأ الكبير الذي يسير عليه معظم الناس ، هو اعتقادهم بأن للانسان حاجات لاتنتهي ، وهي في كثير من الحالات تزيد عن الحاجات الطبيعية التي تكفيه وتريحه وتسعده .

والرفاه الاقتصادي ان لم يرافقه وعي اجتماعي وقيم روحية وثقافية مناسبة كان وبالا وليس رفاها ، وهذا مانجده في المجتمعات التي نالت حظا من مال وصناعة ورفاه ، فقد انهارت وشذ الابناء وانتشرت العقاقير والمخدرات ، واصبح الانتحار والامراض العصبية سمة من سماتها . لذلك وجدنا المفكرين والادباء الملتزمين ينادون ويصرخون للوقوف والتفكير والبحث والدراسة ومعالجة هذه الامراض الاجتماعية التي ستكون سببا مباشرا لزوال حضارة الانسان وسعادته في هذه الدنيا ، وعندئذ لاينفع مال ولا يجدي رفاه .

واذا كان المفكرون والادباء الملتزمون في البلاد المتحضرة يخشون على حضارتهم ويحذرون وينذرون ويكتبون ويؤلفون ، فالاجدر بنا ـ ونحن ما نحن عليه ـ ان نكون اكثر وعيا وتحذيرا وتنبيها وايقاظا فيما نكتب ونتحدث ونؤلف . ومجال الاديب واسع

في كل فن من فنون الادب ، اذا وعى والتزم . امام الاديب : الشعر والمقالة والقصة والرواية[10] والمسرحية والخطبة ....

- ٣ -

والشعر ـ كما يقول بعض المفكرين ـ لم تعد له تلك المنزلة والمكانة والتأثير ، لان الحضارة ستقضي عليه ، وقد عرف (جوته) الشاعر الالماني المجتمع الراقي [بأنه المجتمع الذي يستحيل على الشعر ان يعيش فيه] .

وللشاعر الناقد الانكليزي (ستيفن سيندر) رأي في كتابه (الحياة والشاعر) ، وهو : [11][ان الكثير ممن لهم حظ وافر من المواهب وقدرة كبيرة على فهم الشعر ، يعتقدون الان ان الشعر فن ميت ، ولكن اذا كان الشعر حقا ميتا ، فلقد وجب ان يكون الموقف الشعري من الحياة بدوره ميتا بأسره ، أفلا يوجد في الادب الا ذلك النوع من الكتابة الذي يعكس مظاهر العصر فقط ؟ وهذا معناه أننا نعيش في عصر تسوده عواطف متسلطة : عصر مفصول فصلا تاما عن ذلك الفهم للشروط العامة للحياة ، الذي لايوجد من دونه اي نقد للحياة واي تفكير سليم ..... وليس مهما ان يكون جمهور

(١٠) المصطلح عليه هو أن نسمي القصة ما كانت قصيرة والرواية ما كانت طويلة والمسرحية ما كانت رواية تمثيلية . النقد الادبي جـ١ ص ١١٦ .

(١١) الحياة والشاعر ص ١٣٢ .

القراء محدودا ، وانما المهم ان تمتد القيم التي يُعنى بها الشعر ، فتشمل مساحة واسعة من التجارب التي يحياها الناس • اما اذا وجدنا الشعر في عالم يؤمن الناس فيه بان الذي يحدد القيم الكلية النهائية هو المال والقوة والعنف والنجاح المادي ، فان الشاعر حينئذ يجد نفسه في أزمة غريبة حقا ، لان القيم النهائية في هذا العالم معناها انكار الشعر •••• فالشاعر اذن في هذه الحال مجبر على ان يختار بين أمرين : اما ان يعيش في جزيرة ضئيلة متخلفة من الماضي ، واما ان يتناول في شعره قيم العصر] •

ان الشعر سيبقى مابقي الانسان انسانا ، ولكن اي شعر هذا الذي سيكون بعد ان تغيرت الدنيا وتطور معها الانسان ؟ على الشاعر ان يدرك هذه الحقيقة اذا اراد ان يخدم المبدأ الذي يلتزم به فيخلد بخلود شعره • ان الشعر الذي نريده يجب ان يرفع نفوسنا من تجربة الحياة العادية المألوفة الى مستوى أعلى وارفع ، ويجول بنا في مجالات أسمى من مجالات حياتنا التي نحياها •

ولعل خير من يعبر عن هذا ، مايقوله الاستاذ ميخائيل نعيمة في كتابه (الغربال) عن الشعر والشاعر(١٢)[والشاعر الذي يستحق ان يدعى شاعرا لايكتب ولايصف الا ما تراه عينه الروحية ويختمر به قلبه حتى يصبح حقيقة راهنة من حياته ، ولو كانت عينه المادية

---

(١٢) الغربال ص ٧١ •

احيانا قاصرة عن رؤيته ، ذاك لايعني ان الشاعر يقدر ان يحـــول الاسود أبيض او الاحمر أصفر ، اي يعرّي الاشياء الحقيقيـة عـن مميزاتها الطبيعية ويعطيها صفات من عنده داعيا ذاك (خيـــالا) ، كلا • وهذا كل الفرق بين الشاعر و (الشعرور)(١٣) • الشاعر لايصف الا ما يدركه بحواسه الجسدية او يلامسه بروحه • لسانه يتكلم من فضلة قلبه ، اما الشعرور فيحاول ان يقنعنا بأنه حلم حلما نحن على علم اليقين انها لم تمر له برأس لا في النوم ولافي اليقظة ، ويصف لنا عواطف لم يشعر بمثلها لابشر ولاجن ولاملاك من اول وجود هذا العالم حتى اليوم • لذاك تهزنا اشعار الاول فنحفظهـــا ونرددها وتضحكنا (قصائد) الثاني فنضرب بها عرض الحائط ••••

[الشاعر نبيّ وفيلسوف ومصوّر وموسيقي وكاهـن • نبي لانه يرى بعينه الروحية مالايراه كل البشر ، ومصور لانه يقـدر ان يسكب ما يراه ويسمعه في قوالب جميلة من صـور الكـلام ، وموسيقي لانه يسمع أصواتا متوازية حيث لانسمع نحن بـــوى هدير وجعجعة ، العالم كله عنده ليس سوى آلة موسيقية عظيمـة تنقر على أوتارها اصابع الجمال وتنقل الحانها بسمات الحكمـــة الابدية ••••• واخيرا الشاعر كاهن لانه يخدم الهاً هو الحقيقة

---

(١٣) يقول الجاحظ في البيان والتبيين جـ٢ ص ٩ :
سمعت بعض العلماء يقول : طبقات الشعراء ثلاث : شـــاعر وشويعر وشعرور •

والجمال ، هذا الاله يظهر له في ازياء مختلفة واحوال متنوعة ، لكنه يعرفه اينما رآه ويقدم له تسابيح حيثما احست روحه بوجوده] •

- ٤ -

واذا كانت (المقالة) قد قللنا من شأنها ونظرنا اليها غير نظرتنا الى بقية فنون الادب ، وكاتب المقالة ليس في منزلة كاتب الشعر او القصة او المسرحية ـ وهذه ظاهرة غريبة ـ فان نقاد الادب ينظرون اليها بغير هذا المنظار •

ان الكاتب الفرنسي (مونتين) Montaigne ١٥٩٢ م وهو فيلسوف أخلاقي كبير كان منشيء (المقالة) في القرن السادس عشر بعد أن لم تكن • ويقول الناقد الانكليزي • هـ • ب • تشارلتن H. B. Charlton في كتابه (فنون الأدب) (١٤) [أراد مونتين أن يسكب نفسه بكل ما فيها على القرطاس ، اذن فقد أراد للقصيدة الغنائية ان تُنثر • اراد قصيدة غنائية تتراخى اوتارها فكانت له بهذا التحوير (المقالة الادبية) • والمقالة الأدبية في صميمها قصيدة غنائية وجدانية سيقت نثراً لتتسع لما لا يتسع له الشعر المنظوم من بعض عناصر الذات • فان شئت قانونا

(١٤) فنون الادب ص ٥٦ • والاستاذ تشارلتن هو استاذ الادب الانكليزي في جامعة مانشستر في انكلترا •

يضبط لك (المقالة) من حيث الصورة ، فأعلم أنه قدرتها على التعبير عن خوالج النفس في سيرها الذي يجري على نظام واطراد ، قد تكتنف الاديب الحالة النفسية السائدة ، فتؤثر فيها وتتأثر بها ، فان استطاع أن يصب هذا السيل من الخواطر كما يجري في ذهنه فقد أنشأ : مقالة أدبية] • واذا كانت المقالة الأدبية الصرفة قد اقتصرت على النثر الفني في الموضوعات الادبية ، فقد ظهرت مقالات علمية وفلسفية واجتماعية وسياسية وتاريخية ، بسبب تقدم العلوم وانتشار البحث العلمي والصحف والمجلات ، وظهور الاتجاهات الحديثة في الاجتماع والاقتصاد والسياسة • والمقالة كفن لها أصولها وقواعدها ، فاذا استطاع الكاتب في كل ما يكتب ان يثير في القارىء تفكيرا ووعيا وان يمتعه بأسلوب عرضه وجدة آرائه ، وفهمه قيمة الكلمة التي يستعملها مع بساطة العبارة وعدم التكليف في الصنعة ، فهذا الكاتب أديب ، وما ينتجه أدب •

وبعضنا ـ بمفهوم خاطىء ـ يرى أن الكاتب ان لم يكتب قصة او مسرحية او ينظم شعرا او يكتب في موضوع ادبي ، فليس بأديب ، وبذلك أخرجنا من حقل الادب علماء وفلاسفة ومفكرين اجتماعيين وساسة ومحامين وصحفيين ، وهم ـ في حقيقتهم ـ أدباء ، وقد يكونون أدباء ملتزمين •

وقد تكون (القصة) هـذا الفن الحديث خير أداة بيد الاديب لمعالجة كثير من القضايا الاجتماعية وغيرها • ومؤرخو الآداب(١٥) [يرون ان (القصة) قد شهدت نور الحياة سنة ١٧٤٠م حين أخرج القصصي الانكليزي س • رتشاردسن S. Richardson ١٧٦١م ، قصة (باملا) Pamela ، وأن الحكايات والقصص التي سبقت هذه السنة لم تكن قصصاً فنية بمعناها الصحيح ، فليست كل تلك الحكايات الأولى قصصاً ، لأنها تفقد أخص خصائص القصة ، فلا هي صادقة في تصوير الحياة ولاهي تتعقب اجزاء الحادثة الواحدة تحليلاً حتى تبلغ اقصى مداها ، انما هي حكايات تطالعها •••• وقد تأخرت القصة بسبب تلك الحكايات الاولى نفسها التي أخطأت منذ حين فظنتتها من القصص ، وما هي منها في كثير ولا قليل ••• ولم تكد القصة الأولى تشهد الوجود حتى تبين للعالم أنه قد اهتـدى الى ضالته ، وأخذت القصة منذ ذلك الحين تبوأ مكانة عاليـة في نفوس الناس ، فما زالت تزداد انتشارا حتى أصبحت اوسع فنون الادب ذيوعا بين القراء] •

وفن القصة فن صعب ، سواء أكانت قصيرة أم طويلـة ، ولا يستطيع كل من مسك بالقلم أن يكتب قصـة ، حتى ان أكبر كتاب

---

(١٥) فنون الادب ص ١٢٩ •

القصة المشهورين فشلوا في كثير مما كتبوه لخروجهم عن حدوده وخصائصها الفنية ، وبعضهم تصورها مجالا لبث آرائه فجعلها وسيلة لا غاية ، وهكذا فشل .

والأديب الفرنسي (جورج ديهاميل) في كتابه (دفاع عن الادب) يتحدث عن القصة والقاصين حديثا صريحا فيقول[(١٦)]
[في رأيي ان القصة القصيرة التي تتمتع اليوم بالحظوة لدى صحفنا اليومية كلها تقريبا ، تمثل بالنسبة لروح الاختراع محنة عقيمة أكاد أوكد أنها مميتة ، فهي عقيمة لأنها لا تستطيع أن تثير أو أن تخصب المواهب التي في سبيل التكوين ، وهي مميتة لان هناك كل الاحتمالات في ان تنتهي بأن تقتل الفنان الذي يتعرض لها .

[وارجو ان يشرفني القارئ فيعتقد انني قد فكرت طويلاً قبل ان اواجه هذه الخصومة التي ليست عديمة الاهمية بالنسبة للروح وبالنسبة لمستقبل آدابنا . فن القصة القصيرة فن شاق ... وأوكد أن القصة اليومية هي احدى قروح أدبنا الخفية ، قرحة يسيل منها كثير من الدم الجميل الزكي ويضيع ... فأنا أعرف وأستطيع أن أذكر كتاباً ذوي مواهب سامية قد جففتهم وأضاعتهم مزاولة (الاقصوصة) ، ولقد يتفق لي فوق ذلك ان أقرأ احدى تلك الأوراق التي يقذف بها الى الهاوية كاتب محدود الشهرة ، كاتب

(١٦) دفاع عن الادب ص ١٦٦ .

لا يزال شابا فأحس عندئذ بأحساس من يشاهد مأساة انتحار ، ولكني أعترف أن هذا نادر ، فمن بين الالف أقصوصة التي تظهر في الصحف اليومية ، يستطيع الأنسان أن يؤكد أن ثلاثاً منها تستحق أن تعاد قراءتها] .

هذا في فرنسا فما حال القصة في بلادنا ؟؟

واذا كانت القصة القصيرة محدودة في نطاق محدود ، فالرواية ـ وهي القصة الطويلة ـ تعرض صور متحركة لشخصيات تتحرك وتحيا حياة حقيقية ، وتولد بنفسها الحوادث وتحدد المواقف بحيث ينكر المؤلف ذاته ويضحي بها من أجل شخصياته ، فاذا لم يكن المؤلف قديرا يمتلك الموهبة الحقة فان شخصياته تصبح دمى لا حياة فيها (كمسرح العرائس) أجسام جامدة تتحرك بخيوط وبأصوات لا تصدر عنها .

ـ ٦ ـ

وامام الاديب (المسرحية) وهي كالرواية ، والفرق بينهما ان المسرحية تُكتب لِتُمثَّل ، والرواية تُكتب لتقرأ . فالمسرحية أدب يراد به التمثيل ، وهي فن صعب ، لا يحلق اليه الا من أوتي موهبة نادرة وتجربة وفهما لاطوار النفس الانسانية . لان المسرحية فن مركب يتكون من الفن الادبي والاخراج المسرحي والاداء التمثيلي ، لذلك كان أشهر من كتب المسرحيات هم الممثلون أمثال : شكسبير

ومولير ، لانهم أدرى من غيرهم في هذا الفن الذي يحتاج الى موهبة خاصة قد لا تكون عند القاص او الروائي .

ويقول الاستاذ توفيق الحكيم في كتابه (فن الادب)[١٧] :

[يعتقد الكثيرون ان فناً كالتصوير يحتاج فيه الى موهبة خاصة ، اما فن التمثيل فلا يحتاج لمواهب ، ويكفي القليل من الذكاء للقيام بأعماله . هذا الاعتقاد باطل . ونقصر الكلام هنا على الكتابة المسرحية ، فنقول : ان الكاتب المسرحي شخص مستعد بطبيعته للمسرح ، وان ما يتطلب منه ليكون كاتبا مسرحيا موهبة غريزية مستقلة عن المواهب التي تنتج فنا آخر ونوعا آخر من انواع الادب .

[ذكر (فكتوريان ساردو) في خطبة له في (اكاديمي فرانسيز) صفة قال انها لازمة للمؤلف المسرحي وهي (ان تكون للمؤلف المسرحي حاسة مسرحية ، بمعنى انه لا يدع أمراً او شيئا يقع عليه نظره او تسمعه اذنه الا وتفرغه تلك الحاسة عنده في الشكل المسرحي ، وبعبارة ادق : ان لا ينظر ويسمع ما يدور حوله بغير عين المسرح واذنه ، فان رأى منظرا طبيعيا جميلا فلا يؤخذ بجماله من حيث الطبيعة ـ والا كان مصورا ـ بل يعجب به بعين أخرى ولغاية اخرى فيقول : ما أجمله منظرا في رواية ! وان انصت الى محادثة شائقة او محاورة طريفة قدرها بأذنه المسرحية فقال : ماأصلحه حوارا ! وان رأى فتاة ذات ميزة خاصة كالسذاجة

---

(١٧) فن الادب ص ١٧٠ .

او المكر ، قال ايضا بعين المسرح : ما أحرى مثلها بدور كذا ! وهكذا في كل شيء ، فان قصصت عليه خبرا مثيرا كجريمة او مصيبة ، سبق الى ذهنه التصور المسرحي ، وبرقت اساريره بالاعجاب ، واذا هو يحدث نفسه : موقف بديع ، مأساة رائعة) هذه الموهبة الخاصة والقدرة على تشكيل كل شيء بالقالب المسرحي هي قوة المؤلف المسرحي • فالكاتب كلما قويت فيه تلك الحواس المسرحية ، كان كاتبا بالطبع لاصانعا ولا مرتزقا وكان مثله مثل الشاعر بالفطرة • والكاتب الذي من هذا النوع - وهو عندي المثل الاعلى للكاتب المسرحي - تمتزج حواسه بحواسه الجثمانية امتزاجا لا يستطيع معه استعمال احداها منفصلة عن الاخرى] •

وقد كانت المسرحية منذ يقظتها على يد الكاتب المسرحي النرويجي (هنريك ابسن H. Ibsen ميداناً واسعاً لشرح مشكلة اجتماعية أو علاج مرض اجتماعي • والرواية المسرحية بنوعيها (الملهاة والمأساة) ميدان واسع ومؤثر في توجيه المجتمع وبث الآراء التي يتوخاها المؤلف •

والملهاة في هذا العصر أكثر رواجاً من المأساة(١٩) [والمسرحية

---

(١٨) هنريك ابسن كاتب نرويجي كان داعية الاستقلال الروحي للانسان عامة وللمرأة خاصة وقد الف درامته (لعبة البيت) فكان تأثيرها كبيرا جدا في أدباء أوربا •

(١٩) فنون الادب ص ١٦٣ •

ملزمة أن تتجه اتجاهاً واقعياً ، وان هذه الواقعية لتزداد شيئاً فشيئاً كلما سارت المسرحية في طريق التطور ، وكلما ازدادت في تطورها وواقعيتها تبع ذلك ازدياد ميلها الى الملاهي دون المآسي . فالسير في طريق الواقعية يوازي حتماً رجحان الملهاة على المأساة ، وذلك ما وقع فعلاً في تاريخ الرواية المسرحية . فالكثرة العظمى مما يخرجه أدباؤنا اليوم من المسرحيات ملاهٍ . وفي بدء الرواية المسرحية في تاريخ الآداب الأوروبية ، نجد للمأساة الرجحان ، ثم تعادلتا أيام النهضة الاوروبية ، ثم أخذت الملهاة تطغى على زميلتها وتسود . وليس معنى ذلك أننا اليوم أقل جداً وأكثر هزلاً من أسلافنا . والتعليل الصحيح انما يُلتمس في طبيعة المسرحية ذاتها ، فهذا التحول نتيجة لا مندوحة عنها لما طرأ على عناصر المسرحية من تغيّر ، وبخاصة صناعة المسرح نفسه واعداده وأدواته] .

وهناك عوامل كثيرة تحبب الملهاة الى نفوس المشاهدين ، وتجعلهم يتقبلون النقد والتوجيه والنصح بنفس راضية طيّعة ، ولذلك كان مؤلفو المسرحيات الفكهة والممثلون الذين يجيدون أدوارهم فيها ، هم اكثر شهرة ومحبة من غيرهم .

والسخرية أو الفكاهة فن لا يمتلكه الا فنان بصير موهوب ، لأن لها لغة خاصة وأسلوباً متميزاً ورؤية شاملة لكل مظاهر الأشياء[٢٠] [وروح الفكاهة استعداد طبيعي في نفس صادقة ، لا

(٢٠) دفاع عن الادب ص ٢٢٦ .

تصدّ عن ان تعرف كل ما ترى وان تقول كل ما تعرف] .

وهناك فرق كبير بين أديب ساخط على المجتمع ناقم عليه متألم منه حقود حسود ، وبين أديب يرى التناقض في المجتمع بغير حقد ولا نقمة وبنفس عالية هادئة وقلب محب ودود يريد الخير لبني الأنسان ، وهذا هو الألتزام بعينه .

وأبو العلاء المعري هو خير مثال نستطيع أن نضربه للأديب الفكه الساخط على المجتمع بغير حقد ولا حسد ، والشاهد الجريء على ما كان عليه عصره ، لأنه عرف كل شيء وقال كل ما يعرف . وأسلوبه الفكه الساخر في رسالة الغفران واللزوميات ، وسخريته ممن عاصرهم كان يمثل الفنان الملتزم الذي يمتلك موهبة نادرة ، وحرية فكرية وبصراً في مفاسد المجتمع ومثالبه ، وهكذا خرج من الدنيا وقد أدى رسالته .

- ٧ -

وأكثر الأدباء شهرة بين أبناء قومهم وأبناء الشعوب الاخرى ، هم الفكهون الساخرون الهادفون الملتزمون . ومن النادر أن تجد أديباً أو ناقداً أو مسرحياً لا يعرف من هو[٢١] (موليير)

(٢١) موليير ـ ١٦٢٢ ـ ١٦٧٣ من أعظم الشعراء والفنانين الفرنسيين . وضع التمثيليات الهزلية وغايته تهذيب الاخلاق بفضيحة المساوىء الاخلاقية والاجتماعية .

Moliere الأديب الفرنسي والممثل والمؤلف المسرحي الفكه الساخر الناقد للمجتمع • والنماذج البشرية عند موليير تمثل ألواناً من الناس ، فهناك البخيل الذي لا يهمه غير خزانته ، وما عدا تلك فلا قيمة لشيء ، والمنافق رجل الدين الذي يتخذ الدين مطيته لتحقيق رغباته ، والرجل المستهتر ، والزوج الغيور غيرة مضحكة ، والطبيب رغماً عنه •••• وقد ترجمت مسرحياته الى العربية وليس بين فرق التمثيل في طول البلاد العربية وعرضها فرقة لم تمثل احدى مسرحياته ، ذلك لأنها توافق كل عصر ومصر وستبقى أبد الدهر ، وهي في صميم الطبيعة البشرية بأسلوب فكه ساخر محبب الى النفوس ، هادٍ الى الفضيلة بأبتسامة ساخرة وأحياناً بقهقهة تنبع من القلب •

وهذا الأديب الأسباني(٢٢) (ميشيل دي سرفانتيس Miguel De Cervantes مؤلف رواية (دون كيشوت Don Quixote الذائعة الصيت التي يجب أن لا يجهلها كل أديب ومثقف • سخر سرفانتيس من فرسان القرون الوسطى ومن أدب الفروسية ورواياتها ومغامراتها التي خرجت عن مبادئها السامية ، بأسلوب ساخر مضحك

---

(٢٢) ميشيل دي سرفانتيس ١٥٤٧ ـ ١٦١٦ كاتب اسباني مشهور، كان جنديا ، وقد جرح في احدى المعارك ، وبقى أسيرا خمس سنوات • الف رواية دون كيشوت وهي آية من آيات الادب العالمي ، وقد نشرت لاول مرة سنة ١٦٠٥ م •

بحيث أن بعض نقاد الأدب قال [ان سرفانتيس قضى على الفروسية بأبتسامة] ، فهو لم يؤلف كتاباً عن الفروسية وخروجها عن مفاهيمها وآدابها الحقيقية التي تدعو الى مساعدة الفقير ونصرة الضعيف المظلوم واقامة العدل بين الناس ، ولم يتحدث عن تسمم العقول بالقصص التي تتحدث عن خوارق المغامرات وعمالقة الرجال وعن السحر والسحرة ... بل وضع كل المفاهيم الخاطئة والشذوذ في سلوك الفرسان وفي المجتمع ، وكل السموم التي حصلت في عقولهم ومبادئهم ، وضعها في عقل (دون كيشوت) وسلوكه ومغامراته بحيث يعرف القارىء في كل العصور حالة اسبانيا وقتئذ وما كان يحيط بها ، فكأنه وضع شريطاً كوميدياً من أشرطة السينما التي لا تبلى مع الزمن .

ولم يكتف بذلك بل وضع لها العلاج ، ذلك العلاج الذي لا يقوم به الا الطبقة المثقفة المستنيره الواعية ـ خريجو الجامعات ـ التي تدرك رسالتها وتعرف طريق الاصلاح بأسلوب يناسب المجتمع الذي تعشش فيه تلك المفاسد ، وهذه احدى العبر التي نحصل عليها من هذه التحفة النادرة التي أضحكت الناس ودفعتهم الى التأمل والتفكير .

ولا بدّ من محاولة ذكر لمحة[٢٣] ـ ولو خاطفة ـ لهذه

(٢٣) لخصت الرواية وذكرت بعض أبرز احداثها من كتاب The Adventures of Don Quixote ولو كان هذا التلخيص قد

التحفة العالميـة التي لا يستغني عن معرفتهـا كل قارىء ، لأن دون كيشوت على أفواه الناس ويذكر في مناسبات كثيرة ، ولأن هـذه الرواية الهزلية الكوميدية الهادفة الخالدة قد لاقت اهتماماً كبيراً

ذهب بروعة حوار دون كيشوت ، فمعذرة للقارىء ، لان هذه التحفة يستحيل تلخيص حوارها ٠

(في قرية من احدى مقاطعات اسبانيا عاش (ألونسو) الرجل الطيب ، يعمل في حقله قبل ثلاثمائة وخمسين سنة ، وهو في حوالي الخمسين من عمره ، طويل القامة نحيفها ، مولع بقراءة كتب الفروسية التي تغري القراء في زمنه حول المغامرات الخطرة للفرسان الجوالين ، وقصص مملوءة بحوادث يحتمل وقوعها في عقول المجانين في أحلامهم ٠

باع الرجل مزرعته واشترى تلـك الكتب الضخمـة وصـار يقرأها ليل نهار ، حتى أثرت فيه فبدأت عليه علامات الشراسة، وظن في نفسه أنه الفارس الجوال الحقيقي ، وقرر أن يغـير اسمه الى (دون كيشوت) لان اسمه لم يعجبه ، وتقدم نحو حصانه الهرم الهزيل ، واختار له اسما ، وحمل رمحه وسيفه القديم واختار اسما لمحبوبته ، وكانت صبية صغيرة رآها في أحد الحقول فأحبها وكتم حبه لها ، وهكذا ترك القرية ليقوم ببطولاتـه ٠

سـار دون كيشوت ووصـل الى (فندق صغير) يقصـده أصحاب البغال والفقراء من المسافرين ، فظنه قلعة كبيرة ، وصاحب الفندق من اللوردات الكبار ٠ وكان يقلقه أنه لـم يجد الملك او الحاكم الذي يمنحه لقب (فارس) فاقنع صاحب الفندق بأن يمنحه اللقب ٠ وكان هذا رجلا دمث الاخـلاق يحب الفكاهة ، وقد كان في شبابه لصا دخل السجون الكثيرة

من المفكرين ونقاد الأدب وعلماء الأجتماع في كل أوربا ، وذهبوا مذاهب شتى في المؤلف ومقاصده وغاياته بحيث يرى بعضهم (٢٤) أنها من أكثر كتب العالم حزنا ، وفهموها كرواية ترمز الى الكفاح

في اسبانيا ، فلما رأى جنون دون كيشوت أراد أن يعبث به ، وفي اليوم الثاني طلب الى دون كيشوت أن يركع أمامه ، وبدأ يقرأ عبارات بصوت خفيض سريع كأنه يصلي ، ورفع السيف بلطف على كتف دون كيشوت وهو لا يزال يقرأ بجد ، وبذلك أصبح فارسا جوالا لا يعلوه فارس في العالم .

بعد هذا بدأت المغامرات . خاصم أصحاب البغال في الفندق الذي هو فيه فأجتمعوا عليه وطرحوه أرضا ، لكنه استمر في مغامراته حتى أصيب في احداها وعاد الى القرية محطما وقد تكسر رمحه وهزل حصانه ، قرأت ابنة أخته ومدبرة المنزل ما حل به فاستعانتا بكاهن القرية والحلاق وكانا من اصدقائه، وقرروا جميعا حرق الكتب ، فحرقوها وأوهموا دون كيشوت أن الساحر حملها معه ولم يترك في الغرفة شيئا عندما كانوا خارج المنزل . وكان دو نكيشوت قد أقنع سرا (سانشو بانزا) أحد أبناء القرية ليكون رفيقا له، لان من عادة الفرسان الجوالين أن يصطحبوا شخصا معهم . وكان سانشو بانزا فلاحا فقيرا طيب القلب قصير القامة بطينا ، فيه سذاجة وغفلة ، وقد وعده دون كيشوت بأن يكون حاكما على جزيرة وصفها لـه .

سار دون كيشوت ورفيقه بانزا في احدى الليالي خفية ، وكان بانزا راكبا حماره لا يفكر الا في الجزيـرة التي سيحكمها ، وليكون هو الملك وزوجته الملكة واولاده الامراء ودون كيشوت يفكر في الاعمال النبيلة التي سيقوم بها . وعندما أصبحا وهما

الخالد بين المثالية والواقعيـة ، بين منطقة الأفكـار الرفيعـة واليوم العادي ، بين الشعر والمادية السوقية ، بين سمو الروح والنفعية ... وقد وجدوا في دون كيشوت عملاً فذاً من أعمال السخرية المدركة

يفكران في هذا ، لاحت لهما (طواحين الهواء) فتصورهـا دون كيشوت انها عمالقة ، فهجم عليها واشتبك معها حتـى حطمته مراوح الطواحين • وهنا يدور الحوار الطريف بـين دون كيشوت وپانزا عن هذه المعركة •

ثم سارا فوجدا كاهنين وراءهما عربة فيها امرأة وحولهـا فرسان ، فتصور دون كيشوت الكاهنين ساحرين سـجنا الاميرة ، فأراد أن ينقذها ، فكان القتال •

ثم لقيا في يوم آخر غيوما كثيفة من غبار حسبها دون كيشوت جيوشا تزحف ، فلما انجلى الغبار كانت قطعان أغنام ، لكنه هجم عليها صارخا مهددا ضاربا الاغنام برمحه الى ان سقط مغشيا عليه ، فلما أفاق عاتبه مرافقـه پانزا على عملـه فأجابه : ان الدواء السحري أبغضني كثيرا فلم يرض أن يرى نجاحي فحول الجيوش الى غنم • وكان دون كيشوت قد صنع له دواء سحريا – من عقاقير عجيبة – يشربه بعد كل قتال •

ثم سارا فرأيا حلاق القرية وكان قد سافر لبعض شأنه ومعه الكاهن ، فاصطدم بهما وأخذ صحن الحلاق الذي كان معـه يستعمله في الحلاقة ، وجعله قلنسوة لا يشابهها تيجـان الملوك • وفي كل معركة تجد الحوار الطريف بين دون كيشوت وپانزا والاعذار التي يقدمها لفشله فيها ، وكلها يدعو الى التأمل والاستغراق في الضحك لما فيها من سذاجـة وعقـل حالـم •

بطريقة رومانتيكية نموذجية ... ان سرفانتيس يشهر بدون توقف بطوبائيات دون كيشوت ـ الطوبائي هو الحالم بعالم مثالي ـ وهذا الكاتب الأسباني العظيم يبدو كأحد أكبر نقاد الفكر الطوبائي وجميع

ثم عادا الى القرية فاجتمع حولهما ابنة أخته ومدبرة المنزل والكاهن والحلاق وقرروا الاستعانة بالشاب المثقف (سامسون) وهو متخرج في جامعة (سلامانكا) الشهيرة وقتئذ ، لانقاذ دون كيشوت مما فيه .

أيد سامسون دون كيشوت في سلوكه مجاراة له ، وعالجه بأسلوب (وداوني بالتي كانت هي الداء) . ركب سامسون حصانا ولبس ثيابا مذهبة وحولها مرايا صغيرة تلمع في ضوء الشمس وأخذ مرافقا له ألبسه قناعا ذا أنف طويل ، والتقى بدون كيشوت وصار يغني أغاني الحب . ولما تقدم منه سأله عن لقبه فقال له سامسون أنا (فارس المرايا) وصار يعدد صفاته كأنها صفات دون كيشوت ، فغضب دون كيشوت وطلب المبارزة ، وكان الشرط : أن الغالب يفرض على المغلوب طلبا يجب ان يؤديه ، ولكن دون كيشوت صرع سامسون .

ثم سار دون كيشوت ومرافقه پانزا فلقيا شخصين ومعهما أسد في قفص أهداه قائد الجيش في افريقيا الى ملك اسبانيا . أراد دون كيشوت أن يصارع الاسد وطلب اخراجه من القفص وقال : ان الجني أرسل هذا الاسد ضدي وسيرى ما سأفعله بالاسد ، لكن الاسد لم يتقدم نحوه ولم يخرج من القفص ، فبدأ دون كيشوت يعلل هذا الموقف حسب هواه واحلامه ويذكر بطولاته ومغامراته .

وكان سامسون قد فكر بأعادة التجربة التي فشل فيها متخذا الحذر في هذه المرة . وفي صباح أحد الايام بينما كان دون كيشوت خارج المدينة لقيه سامسون راكبا جوادا قويا وحاملا سلاحا وتقدم منه قائلا : يا دون كيشوت أنا (فارس القمر)

الأنشطة النابعة منه .... ان رفقة دون كيشوت ل (سانشو بانزا) - وهو رفيقه في مغامراته كما تجده في ملخص الرواية - تكشف أمامنا صفة مميزة أخرى للطوبائية ، فالفنطازي الطوبائي يمكنه ببساطة أن يجذب اليه عقول الناس الملتصقين بالأرض ولكن غير القادرين على التفكير النقدي • فهؤلاء يحلمون حينها بالمنافع المادية التي يمكن أن يجنوها من هذا العمل أو ذاك • والطوبائي لا يمكنه

ولابـد من أنك سمعت بعظمتي ، لقد قدمت هنا لتعترف بأن حبيبتي أشهر من حبيبتك ، فاذا وافقت فأنت طليق ، والا فالقتال بيننا ، ويجب أن تعد بأنك اذا انهزمت أن تعود الى قريتك وتترك المغامرات ، واذا انتصرت فأنا مستعد لان أقوم بما تشاء •

التحم الفارسان وفاز سامسون (فارس القمر) وعاد دون كيشوت الى القرية بارا بوعده ، لان البر بالوعد من أخلاق الفرسان • وهكذا انتصر الشاب المثقف على جنـون دون كيشوت • وعند عودته الى قريته استقبله اصدقاؤه ، وقرر أن يكون راعيا يغني بحبه • ولكثرة أسفاره ومعاركه وقـع مريضا فأحس بما عاناه • وفي احدى الليالي طلب ممن حوله أن يتركوه لينام ، وبعد مدة سمعوه يصرخ قائلا : أحمد الله على رحمته ، هذه الرحمة التي لا نهاية لها ، لقـد أعطانـي رحمته ، لقد جاءني ضياء ساطع ، ان الغيوم السوداء التـي ملأت عقلي بسبب كتب الفروسية لقد ذهبت كلها عني • نعم ، لقد رأيت الان ان تلك الكتب مملوءة بالجنون والخداع ، وأنا آسف لان عيوني تفتحت متأخرة جدا ، وأنا أشعر بالموت • وعندما قربت منيته اعترف أمام الكاهن وترك وصيته) •

العيش بدون مؤيدين من هذا الصنف شأن دون كيشوت الذي قد كُتب عليه الفناء لو لم ينقذه سانشو بانزا .... فالأيمان الطوبائي يخدع التفكير السليم ، وهكذا كما نشهد في التاريخ ، فكل طوبائية تملك دون كيشوتها وسانشو بانزها] [٢٤] الى غير ذلك من الآراء التي شغلت المفكرين والنقاد مدة طويلة .

وهكذا أضحكت رواية دون كيشوت الناس مدة طويلة ولا تزال ، ودعتهم الى التأمل والتفكير ، حتى أن أحد المؤرخين يقول [٢٥] [ان فيليب الثالث الذي كان واقفا في احد الايام في شرفة قصره ، رأى طالبا يقرأ كتابا وينفجر بالضحك من حين لآخر فقال الملك : اما أن يكون هذا مجنوناً أو أنه يقرأ قصة دون كيشوت ، وتبين بعدها أن الطالب كان يقرأ دون كيشوت] . هكذا أثرت هذه التحفة النادرة في الناس الى يومنا هذا ، ولا يزال تمثال دون كيشوت الطويل النحيف وهو راكب حصانه الهرم الهزيل وبيده رمحه الطويل وبجانبه رفيقه سانشو بانزا الفلاح الساذج القصير البطين وهو على حماره ، في وسط أكبر شارع في (مدريد) عاصمة اسبانيا .

- ٨ -

هذا قليل من كثير من الأدباء الذين خدموا البشرية وقدموا

(٢٤) مجلة آفاق عربية ، تشرين الاول لسنة ١٩٧٩ ص ٧٦ وما بعدها .

(٢٥) المصدر السابق ص ٧٦ .

لأبنائها ما ينمي الفكر ويهذب العواطف ويوقظ الوعي وينير الطرق الوعرة للسائرين •

وأمام الأديب الموهوب ميدان واسع ليختار الفن الذي يتفق مع طبعه وموهبته ، فيؤدي رسالته التي التزم بها وخلق من أجلها ، وبذلك يصبح أدبه عالميا يقرأه كل الناس في كل العصور (٢٦)[وهكذا يوضح مبدأ على أعظم اهمية في تقدير الادب ، هو مبدأ (العالمية) أي أن يكون الأدب ممتعاً لكل الناس في كل الأزمان • قال(٢٧) لونجينوس Longinus (يمكن بوجه عام أن نعتبر الكلمات التي تمتع الكل وتمتع دائماً ، نبيلة وجليلة ، فاذا كان الكتاب يصدر نفس التأثير على كل من يقرأونه مهما كانت الاختلافات في أغراضهم وطرق معيشتهم وميولهم وعصورهم ولغاتهم فان هذا الأنسجام بين الأضداد يقوم دليلاً على صدق الرأي الذي يعتنقونه) ••• والبعض يقول : ان قيمة الأدب في رواجه بين طبقات معينة من الناس في زمن ما ، لكن هناك نقطة تحتاج الى توضيح ، وهي : ان القوة التي تكسب بها الأعمال الخالدة حياة الخلود تعتمد على صفات تختلف تماماً عن التي تسبب نجاحاً سريعاً عاماً في الحال] •

---

(٢٦) النقد الادبي جـ١ ص ٢١٤ •
(٢٧) لونجينوس ـ أديب وناقد يوناني عاش في القرن الاول للميلاد، وهو أول من قال : ان الاسلوب هو الرجل •

ويؤيد هذا الرأي الأستاذ توفيق الحكيم في كتابه (عدالة وفن) حيث يقول[٢٨] [ان ماضي الفن يعج بالبراعات الفنية التي نجحت النجاح الساحق في وقتها ، ولكن التاريخ لم يحتفظ لنا منها بشيء يذكر ، ولم يحفل بأن ينقلها الينا ، لماذا ؟ لأن باب التاريخ مسن بلتورسميك لا ينفذ منه مجرد تصفيق النجاح ، ولكن الذي ينفذ منه هو شعاع الجوهر الذي ينفع الناس في كل عصر ويولـد طاقات • ذاكرة التاريخ الفني لا تشحن الا بالأشعاعات والطاقات ، لأنها هي التي تدفع المحركات التي تسير بها الأنسانية] •

(٢٨) عدالة وفن ص ٢٤ •

حياة الأديب

يرى معظم نقاد الادب ، القدماء والمحدثين ان (حياة الاديب جزء من أدبه) ، لان التركيب الفسيولوجي ، والمواهب ، واسلوب التربية والمجتمع ، والحالة الاقتصادية والمظهر الخارجي للخلق - الذي ندعوه بالسلوك او المعاملة ـ والثقافة والمبادىء الروحية التـي يحملها الاديب ..... كل هذه تعمل على تكوين شخصيتـــه وتوجيه حياته .

ونحن لو تأملنا حياة الادباء الخالدين الذين لديهم النزعـة الانسانية ، لوجدناهم في القمة من الخلق السامي والسلوك الطيب والضمير الحي ، وقد عانى بعضهم المتاعب بسبب ان ما انتجوه من ادب كان صورة صادقة لحياتهم الخاصة (ومن وعظ الناس **بفعله** فقد هدى ومن وعظهم بقوله فقد غوى) .

وكان الخطيب اليوناني (ديموستين)[1] يقول [2]: [ان من المستحيل ان تكون روح المرء متسمة بطابع النبل والرفعة ، في الوقت الذي يسعى فيه الى تحقيق اهداف تتسم بطابع الخسة والضعة ، فطبيعة الانسان لابد وان تكون متفقة مع اهدافه] .

---

(١) ديموستين-٣٢٢ ق.م من اعظم خطباء اليونان . قاوم فيلبروس المكدوني الذي طمح في استعباد الاثينين .

(٢) كتاب العقل الناضج ص ٢٢٨ .

ونقاد الادب يدعون الادباء الى التمسك بالخلق واصلاح انفسهم قبل اصلاح الناس ، ليكون اثرهم اشد واقوى ، وهم القدوة والمرشدون .

فمن اقوال[٣] عبدالحميد الكاتب ١٣٢هـ في رسالته الى الكتاب[٤] [فجعلكم الله معشر الكتاب اشرف الجهات : أهل الادب والمروءات والعلم والرزانة ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم امورها ، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ويعمر بلدانهم ... وليس احد من اهل الصناعات كلها احوج الى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة ، منكم ايها الكتاب اذا كنتم على مايأتي في هذا الكتاب من صفتكم ، فان الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به من مهمات أموره ، ان يكون حليما في موضع الحلم ، فهيما في موضع الحكم ، مقداما في موضع الاقدام ، محجاماً في موضع الاحجام موثرا للعفاف والعدل والانصاف ، كتوما للاسرار ، وفياً عند الشدائد ، عالما بما يأتي من

(٣) عبدالحميد بن يحي الكاتب ، نشأ في الانبار ، بليغا حصيفا ، وصاحب مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ايام ولايته وخلافته حتى قتلا سنة ١٣٢هـ . وعبدالحميد يعد من اساتذة البلاغة العربية وشيخ كتاب الرسائل عامة - المنتخب من ادب العرب جـ١ ص٩٦ .

(٤) رسائل البلغاء ص١٧٢ .

النوازل يضع الامور في مواضعها ، والطوارق في اماكنها ، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه ، وان لم يحكمه اخذ منه بمقدار من الحسن ، واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بألطف حيلة وأجل وسيلة] •

ومثل هذا ، ولايقل روعة عنه ، ما قاله ابن قتيبة في مقدمة كتابه (أدب الكاتب) في وصاياه للادباء ، وقد طبق كل مادعا اليــــه على نفسه فكان من اسمى الناس خلقا وأكثرهم زهدا وتواضعـــا وعفة ، مع سعة علمه وتفننه في معارف زمانه بشهادة كل من ترجموا له وتحدثوا عنه •

والاستاذ سلامه موسى في كتابه (الادب للشعب) يقول :(٥)
[ان الاديب الحق الامين ، قد اصبح في نظر قرائه كاهنا او اماما ، يربي الضمائر ويوجه الاخلاق ، كما يطرب النفوس ويمتع العقل والاحساس • اننا نطالب الاديب في ايامنا بما كنا نطالب به الكاهن او الامام في القرون الماضية • نطالبه بأن يكون هو نفسه الصــورة الاولى لادبه وفنه ، فنسأل عن اهتماماته وهمومه ، ونتجسس بعد موته على حياته ، وهل كان صادقا يكتب مايحياه ، ويحيا ما يكتبه ؟ أم كان كاذبا يجري على المثل السخيف القديم : أعذب الشــعر أكذبــه ؟

---

(٥) الادب للشعب ص ٩ ، ٥٠ ، ١٤٧ •

[ومن هنا يجب ان يرتفع انتقادنا للاديب الى حياته التي لا يمكن ان تنفصل عن أدبه ، لان ما يأخذ به من قيم واوزان في مجتمعه ودنياه وعيشه ينتقل الى ما يؤلف من ادب ..... أليس الواقع ان كلاً منا يؤلف نفسه ويكوّن شخصيته ويعين اهدافه قبل ان يؤلف كتابا ؟ بل أليس الكتاب هو ثمرة الشخصية ؟

[والاديب المخلص لايستطيع ان يخلص لقرائه الا إذا اخلص لنفسه ، لانه بهذا الاخلاص لنفسه يعيّن لنفسه حالات من العيش والتفكير والاهداف والوسائل يؤمن بها ويمارسها ، ولذلك يحاول ان يحمل غيره على الاخذ بها ، ولهذا فخير مايؤلف الاديب هو نفسه هو شخصيته] .

ويظهر ان الاستاذ سلامه موسى قد تأثر بالناقد الفرنسي العظيم (سنت بيف) Sainte Beuve ١٨٠٤ - ١٨٦٩ كما تأثر به الدكتور طه حسين في نقده الادبي فأتى بالرائع من التحليل لشعر الشعراء وشخصياتهم ومجتمعهم(٦) [وسنت بيف هذه الشخصية العظيمة التي تحتل في تاريخ النقد ذروة من ارفع ذراه ، ولعل اول ما يروعنا تلك المقدرة النقدية ، الهائلة التي اتيحت لسنت بيف فمكنته من انتاج هذا العدد الكبير من المجلدات الخمسين او الستين الجامعة لمقالاته النقدية ، وهذه الكمية الضخمة هي اكبر مقدار اتيح لناقد انتاجه] .

---

(٦) النقد الادبي ج ، ص ٣٣٦ .

ان مذهب سنت بيف في النقد[٧] [هو ما يعبر عنه هو نفسه بقوله : الكتاب تعبير عن مزاج فردي ٠٠٠٠ وقد درس معاصريه بنوع خاص ، فأخذ يستقصي مظاهر حياتهم المادية والعقلية والاخلاقية ، حتى نراه لا يتورع عن شيء في سبيل معرفة ما كان يسميه (وعاء الكاتب) ٠ لقد تتبع حياة الكتاب الشخصية والعائلية وتلاميذهم واصدقائهم ، بل واعدائهم ، ويحاول الكشف عن اذواقهم وعاداتهم وآرائهم الشخصية ، وهكذا جاء نقده تصويرا لشخصيات الكتاب ٠٠٠٠ ومثل هذا المنهج يمكن تطبيقه على المعاصرين وكتاب العصور الحديثة ، اما القدماء الذين لم تصلنا عنهم عادة الا صور ناقصة ، أي تماثيل مهشمة ، فليس من السهل أن تسعفنا المعلومات اللازمة لذلك ٠

ويقول : [وليس الادب - اي الانتاج الادبي - منفصلاً في نظري عن الانسان ، فبأستطاعتي ان اتذوق مؤلفا ادبيا ، ولكنه من الصعب ان احكم عليه دون معرفة بالكاتب نفسه ، ذلك لانه كما تكون الشجرة يكون ثمرها ٠ وهكذا تقودني الدراسة الادبية الى الدراسة الانسانية قيادة طبيعية ٠٠٠٠٠ ولا يجوز ان نغفل اية وسيلة لمعرفة (الرجل) اعني معرفة شيء آخر غير (الروح المجردة) ٠ وما دمنا لم نُلقِ على انفسنا عدة اسئلة عن الكاتب الذي نريد دراسته ، ومادمنا لم نعثر على اجابة عن هذه الاسئلة ، ولو همساً بيننا وبين

(٧) في النقد الادبي ص ٦٤ ومابعدها ٠

امسنا ، فاننا لن نستطيع ان نجزم بأننا قد عرفنا معرفة كامله ، وذلك حتى ولو كانت تلك الاسئلة ابعد ما تكون عن طبيعة كتاباته ، كأن تسائل عن رأيه في الدين ، وكيفية تأثره بمناظر الطبيعة ، ورد الفعل الذي تحدثه النساء او المال في نفسه ، وهل هو غني ام فقير ؟ وما نوع حياته ؟ وكيف يقضي سحابة يومه ؟ الخ ... واخيرا موضع النقص او الضعف فيه ، مادام لكل انسان موضع ضعف او نقص ، وكل هذه الاسئلة لا يعتبر واحد منها نافلة ـ اي زائدة غير واجبة ـ عندما نريد ان نحكم على مؤلف كتاب ، او على الكتاب نفسه ، مادام هذا الكتاب ليس موسوعة في الهندسة النظرية وانما هو كتاب ادبي ، اي كتاب يضم المؤلف بين دفتيه .

[ويتلخص مذهب سنت بيف في النقد : في العناية بالكاتب ودرسه قبل نقد مؤلفاته ، واعتبار شخصية المؤلف اساسا لفهم مايكتب ونقده ... ولم ينظر الى النقد الادبي كفرع من فروع الفن الادبي فحسب ، بل كعلم انساني ليقوم بجوار علم النفس وعلم الاجتماع ، ولعله لا يقل دقة واهمية عنهما في دراسة الانسان في ذاته وفهم ملكاته وتحليل عوامله النفسية] .

وقد نشأ النقد الادبي عن طريق دراسة سيرة الاديب منذ مدة طويلة وبرز نقاد[8] كثيرون حللوا شخصيات ادبية مرموقة من

(٨) في كتاب النقد الادبي ومدارسه الحديثة في امريكا جـ١ ص١٨٥ فصل كامل عن النقد الادبي عن طريق دراسة السيرة ومشاهير النقاد الذين التزموا بها وحسناتها وسيئاتها .

دراسة سيرتهم وحياتهم الخاصة على ضوء علم الاجتماع وعلـــم النفس ونظريات التحليل النفسي وعلم الاقتصاد والتيارات السياسية المعاصرة •

اما التطور العظيم الذي أحرزه النقد المعتمد على السيرة ، فقد حدث في فرنسا بفضل الناقد الكبير (سنت بيف) في منتصـــف القرن الماضي •

ويقول الاستاذ سلامه موسى[٩] [ما هو اعظم ما يؤلف المؤلف في الادب ؟ هو حياته ، كيف عاش ؟ كيف ارتزق ؟ ماهي الاحزاب السياسية التي انضم اليها ؟ ماهي الثقافة التي أنث بها ذهنه ؟ ماهـي علاقته بمجتمعه ؟ هل سعى لخيره ام لضُره ؟ بل ماهو كفاحـــه في هذه الحياة ؟ •••• ان الكاتب الذي يقف موقف الارشاد والتوجية ، يجب عليه ان يبسط لنا حياته ، ويوضح خطأه ويبين اعذاره •••• كما عليه ان يدلنا على الاثر الذي تركته ثقافته في شخصه ، وكانت عاملا في تكوين شخصيته ، وذلك كي نقرأ حياته فنتربى بقدوته • ان حياة الاديب جزء من مؤلفاته بل هي اعظمها] •

هذه الدعوة التي دعا اليها الاستاذ سلامه موسى ، طبقها على نفسه فألف كتابه[١٠](تربية سلامة موسى) وقد تحدث فيه عـن

(٩) الادب للشعب ص ١٠٧ •

(١٠) تربية سلامة موسى • الفه سنة ١٩٤٨ •

طفولته وأسرته ، وكيف ربى نفسه بنفسه تربية ادبية وعلمية ـ وهو لم يدرس في جامعة ـ وذكر الاحداث التي مرّت بها مصر ، وذكرياته عن الحرب العالمية الاولى وكفاحه الثقافي والسياسي واختباراته الصحفية •

وكان الدكتور طه حسين قد الف كتابه (الايام) يتحدث فيه عن طفولته ودراسته في الازهر ، ولا اظن القارىء يجهله ، ولعله من اكثر النقاد العرب تأثرا بمذهب (سنت بيف) في النقد ، فهو في احاديثه عن الشعراء في كتابه (حديث الاربعاء) وفي غير هذا الكتاب كان يبحث عن حياة الشعراء والكتاب وما يحيط بها من خير وشر ، ويعطينا صورا دقيقة لشخصياتهم ومجتمعاتهم ، وهكذا فعل مع المتنبي وابي العلاء المعري • فهو في كتابه (مع ابي العلاء في سجنه) يعلّق على بيت قاله ابو العلاء وهو :

لاتَظْلِموا المَوْتى وإنْ طَالَ المَدى
إنـي أخافُ عليكُمو أنْ تَلْتَقُوا

فيقول[11] [والغريب اني قد وعيت هذا البيت وفقهته كما ترى ، وتأثرت به اشد التأثر وقبلت وعظ ابي العلاء بالقياس الى ابي العلاء نفسه ، ولكني لم أقبله ، وما ارى اني سأقبله بالقياس الى غيره من الشعراء والكتاب الذين عرضت لهم او سأعرض لهم بالدرس

(١١) مع ابي العلاء في سجنه ص٢٤ •

والبحث في يوم من الايام اني اتصور من شئت من الشعراء والكتاب الذين ارتحلوا عن هذه الدار في العصور القديمة او في هذا العصر الحديث ، واتصور اني اعرض لهم بالنقد واعرض لحياتهم الخاصة بالدرس واقول فيهم مالم يكونوا يريدون ان يظهر من امرهم ، ثم القاهم بعد ذلك في هذه الدار او في دار اخرى فأجد منهم سخطا على ماقلت فيهم وضيقا بما اظهرت من امرهم ، وقد يعرض لي بعضهم بالاذى وقد يكتفي بعضهم بالعتاب ، ولكن شيئا من ذلك لايهمني ولايخيفني ولايصرفني عما يجب ان اقبل عليه من البحث مادمت مطمئنا الى اني لم اتعمّد ظلما ولا تجنيا ، ولم اقل الا ما اعتقدت ، مصيبا او مخطئا ، انه الحق] .

وألف الاستاذ احمد امين كتابه[١٢] (حياتي) وفيه تحليل لنفسه وشخصيته وذكر لعيوبها ووصف لمن حوله من اهل بيته ، وتاريخ الحركة الثقافية والعلمية بمصر ... فكأنك تقرأ رواية ممتعة خطها قلم اديب مفكر وعالم منصف ، كلماته بميزان واسلوبه ممتع مسلي .

وكتب الاستاذ عباس محمود العقاد اربعين مقالا ، تناول فيها حياته الشخصية بما لها وما عليها من صفات وطباع وتربية ادبية وفكرية ، وبمن تأثر به من الناس والاحداث ، وصدرت بكتاب

(١٢) حياتي . الفه احمد امين سنة ١٩٥٠ .

بعنوان [13] [أنا] • وفي سنة ١٩٥٧ اخذ يكتب عن الجـــانب الاجتماعي والسياسي في حياته بعنوان [حياة قلم] ، وصدرت هذه المقالات بالعنوان نفسه •

ومن الادباء الغربيين جماعة كتبوا حياتهم واعترافاتهم ، ولعل ابرزهم الاديب الروسي الكبير (تولستوي) في كتابه [14] [اعترافات تولستوي] • واعترافاته وسيرة حياته في منتهى الروعة والبلاغـــة والمناقشة العقلية ، مع صراحة في القول تدعو للعجب من الثقة بالنفس التي تعدد عيوبها ومساويها وماجنت في حياتها ، وفيها تحليل دقيـق لازماته النفسية والعقلية عندما بدأ حياته بالشك في الدين وانتهـى بالايمان واليقين • وهو يحدثنا عن ثقافته الواسعة في كل ماهيأت له الاسباب من آداب وعلوم طبيعية وفلسفية ودينية • عاش تولستوي في ترف ونعمة واسعة ، فأحتقر الترف والمترفين ، ونزل الى الفقراء وعامة الشعب فمجّدهم واثنى على صحبتهم ودافع عنهم وعاشـ عيشـــهم •

ويرى الاستاذ توفيق الحكيم في كتابه (من البرج العاجي)[15]

---

(١٣) جمع هذه المقالات الاستاذ طاهر الطناحي وطبعها في كتابين من سلسلة كتب دار الهلال بمصر احدهما بعنوان (انا) والثاني (حياة قلم) سنة ١٩٦٤ •

(١٤) ترجم الاعترافات الاستاذ محمود محمود سنة ١٩٤٧ •

(١٥) من البرج العاجي ص ١٢٣ •

[ان كل مانطلبه ونرجوه من رجال الادب والفن ان يحدثونا عن كل خلجة من خلجات نفوسهم ، وكل دقيقة من دقائق حياتهم وكل لمحة من لمحات ابصارهم ، وكل ناحية من نواحي احساسهم . ان (نفس) الاديب العارية هي كل ما ينبغي ان يضعه تحت انظارنا . ومن لم يفعل ذلك فليس مطلقا بأديب . فالاديب هو الآدمي الوحيد الذي خُلق لكي يفتح لنا نفسه لنرى خلالها النفس البشرية قاطبة ، ويتحدث الينا عن نفسه فترى من خلال حديثه كل تجاريب الانسانية الشاعرة . وان كل رجال الادب العظام ليسوا الا آدميين حدثونا طول حياتهم عن انفسهم بوسائل شتّى . وانا كقارىء لا يروقني شيء مثل قراءة المذكرات التي يكتبها الادباء والعظماء عن حياتهم الخاصة ، والخطابات والرسائل التي تتناول مسائل تمس اشخاصهم . فنحن في تلك الكتابات المجردة عن اثواب التكلّف والصناعة تستطيع ان نهبط الى اغوار تلك النفوس الرحبة الغنية ، كما يهبط الغواص فجأة في اعماق البحار فيفاجىء اللآلىء في اصدافها لم تمسها يد غريبة تنتزعها لتدخل عليها زيف الصياغ . ان الفنان اذ يتحدث عن نفسه وفنه وحياته الخاصة انما يقدم لنا مادة فنية غير مصنوعة ، انما يترك رداءه الرسمي ليخرج الينا بثياب البيت ، في غير كلفة كأنه صديق . وهذا منتهى الاخلاص منه ومنتهى التكريم لنا] .

ليت الجيل الجديد يقرأ ماكتبه الادباء الكبار عن حياتهم ليرى

كيف يكافح الرجال ، وكيف يربي العصامي نفسه ، وكيف يقود الكفاح الى قمم المجد ، وحياة الاديب صورة حية من ادبه ، وكل العظماء عاشوا في المحن والآلام حتى خرجوا الى الحياة كما تخرج الفراشة من (الشرنقة) بعد تطور وعناء • وخير مايقدمه الادباء للاجيال الجديدة ، تجارب حية عاشوها ، وآلام شديدة عانوها ، حتى صفا جوهرهم ولمع ضياؤهم ، فأناروا الدرب للسائرين •

- ٢ -

ونحن لو اتبعنا مذهب (سنت بيف) في نقدنا الادبي - مع مافيه من نقص - لاخرجنا من حقل الادب الكثير الكثير ممن نالوا الشهرة الطنانة والذين ظهروا على غير حقيقتهم واستطاعوا ان يخدعوا الناس •

ولعل خير مثال على ذلك ، هذه الدراسة عن (سارتر) اديب وفيلسوف الوجودية في القرن العشرين في فرنسا[١٦] [أُخضع الفيلسوف الفرنسي (جان پول سارتر)لعملية تحليل نفسي عميق دون ان يكون على علم بذلك • وهو ما قامت به (جوزيت باكلي) الاستاذة في جامعة الرباط - في المغرب - من خلال اطروحة دكتوراه دولة ، قدمتها الى جامعة السوربون تحت عنوان [كتابات عن سارتر

---

(١٦) مجلة الدستور • لندن - العدد ٣٩٣ • آب ١٩٧٨ ص٤٦ • صفحة الادب والفن حول العالم •

وكتابات له : محاولة في النقد خلال التحليل النفسي] وقد اكتشفت المؤلفة عند سارتر (أثرا تركته عقدة الخصي المرتبطة بتطابقه مع والدته وخضوعه لجدّه) • وترى باكلي ان هذا الوضع حـدد شخصية الفيلسوف فجعله (ذا نزعة انثوية ورجولته موجـودة في قلمه) • وغاصت المحللة عميقـاً في نفسية سارتر لتكشـف اول الخلافات بينه وبين امه ، ولكي تتوصل الى نتيجة مثيرة : وهي ان سارتر كان مدللاً اكثر من اللازم فيما يخص حاجاته الغذائيـة والجسدية (وهذا في تقدير المؤلفة هو الحافز الحقيقي وراء كتابه (الغثيان) بينما كان يعاني من الكبت على الصعيد النفسي) وتشكك الكاتبة في التزام سارتر السياسي معتبرة (ان الشعور بالذنب الذي كان يحسه بسبب اندفاعاته العدائية قد تحول الى عملية ادانـــة للمجتمع) • وهكذا فان صورة سارتر تتبدل تماما عندما نطلع على تحليلات باكلي التي طبقت كل المبادىء التي اوصى بها (فرويد) •

وتكون النتيجة (ان سارتر التقدمي كان في الحقيقة رجعيا ، وسارتر الملتزم كان في الواقع نرجسيا ، وسارتر الذي يبشر بالعدم انما كان في الحقيقة يشعر بالكآبة من الملأ) • وهكذا لا يبقـى من الفيلسوف سوى حالة عصابية مستعصية على العلاج] •

وهذه الدراسة ان لم تكن صحيحة كلها ، فان فيها لمحـات تعطينا شيئا عن ذات الاديب والفيلسوف المفكر ، وعما يختلج في

داخله من اشياء تظهر متناقضة مع سلوكه واتجاهاته الادبيـــة والفلسفية • والتحليل النفسي كعلم يعطينا كثيرا من اسرار وخفايا النفس البشرية ، وعلينا ان لانتكره ، وان نستخدمه في نقدنـــا ودراساتنا ، كما يفعل غيرنا الان • ولايخفى على كـل مثقف ان التركيب الفسيولوجي للفرد وبيئته العائلية واسلوب تربيته ومجتمعه ومستوى ثقافته والعقد النفسية التي تسيطر عليه الخ •••• كــل هذا يؤثر تأثيرا مباشر ، على سلوكه واتناجه ان كان من اصحاب المواهب •

ولنعد مرة ثانية الى قول الخطيب اليوناني (ديموسـتين) : [من المستحيل ان تكون روح المرء متسمة بطابع النبل والرفعة ، في الوقت الذي يسعى فيه الى تحقيق اهداف تسم بطابع الخسـة والضّعه ، فطبيعة الانسان لابّد ان تكون متفقة مع اهدافه] ولنطبقه على الاديب الروسي الكبير (مكسيم جوركي Maxime Gorki
[17][نشأفي بيئة منتنة تكفي لتخريج مائة مجرم،اذ كاناعمامهواخواله والآباء والاجداد أخساء ، يتسولون ويسرقون ويقتلون ، ولـم يكن بينهم غير جدّته التي رأى فيها الخير فأحبها وأحب الخير وعاش للخير • عاش في طفولته في الظلام والسواد •••• وكانت روسـيا تعرف الجوع والعري والجهل والدعـارة والفقر •••• وتعلــم

---

(١٧) الاب للشعب ص ١٤٩ •

جوركي ، اي علّم نفسه في عدة جامعات ـ وكانت جامعاته الحياة نفسها ـ في المخبز يعجن ويخبز ، وفي الباخرة يمتهن اقذر الاعمال ، وفي المتجر والمصنع ، وفي خدمة البيوت والمكاتب ، وتصعلك وتسكع ، اي انه راى الدنيا رؤية خطرة ، ذلك انه كان على جرف الهاوية التي يمكن ان تجره الى حبل المشنقة او السجن المؤبد في سيبريا ، ولكنها رفته الى قمة العبقرية ، لانه احب الناس فأهتم بشؤونهم وكتب عنهم ... وقد كتب اعترافاته في ثلاثة مجلدات : طفولتي ، في العالم ، جامعاتي ... وهكذا خرج هذا الاديب الروسي من الطين والوحل ومازال ينظف نفسه ويطهرها حتى وصل الى قمة الانسانية] ومكسيم جوركي هو كاتب الثورة الروسية واشد من دافعوا عنها ، وقد تولى الوزارة واشرف على المطبوعات ، ولاتزال المجلة الشهرية المسماة (الاتحاد السوفيتي) التي اسسها سنة ١٩٣٠ تصدر بأسم مؤسسها بعشرين لغة من لغات العالم خارج الاتحاد السوفيتي .

فالطبيعة النبيلة لاتعرف الخسة والوضاعة ، مهما لاقت من سوء الظروف وفساد البيئة وقسوة الحياة . وطبيعة الانسان لابد ان تكون متفقة مع اهدافه .

ومن المؤسف اننا ، في ادبنا العربي ، قد اضعنا الموازين ، فهذا الجيل الجديد من الشباب الادباء يعرف الكثير عن ابي نواس

ولا يعرف الا القليل ، اولا يعرف شيئا ، عن الشريف[١٨] الرضي اعظم شاعر رمزي انجبته الامة العربية ، ومن انبلهم خلقا وارجحهم رأيا واغزرهم علما ، ولابي نواس تمثال في بغداد ، وقبر الشريف الرضي لا يعرفه الا القليل القليل .

وجورج ديهاميل في كتابه دفاع عن الادب يعتز بمبادىء الاخلاق ولايرى في العبقرية ذاتها ما يبرر الانحلال او مايدعو اليه وعنده[١٩][ان الرجل العبقري الذي لامبادىء له اشبه مايكون بالعاهرة الجميلة التي يتمتع بها الرجال ، دون ان يمنعهم ذلك من احتقارها] ويرى[٢٠] [ان الاخلاق هي التي تنفث دائماً الروح في العبقرية وان كانت تبقى احيانا غريبة عن النبوغ . والاخلاق اندر من العبقرية ، اذا اخذنا لفظة اخلاق بمعناها المطلق وهي اثمن ما يوهب ... وهبة الاخلاق ـ من بين كل الهبات ـ هي الهبة التي نرجوها بكل حرارة والحاح للفنانين الذين نعجب

---

(١٨) الشريف الرضي ـ هو ابو الحسن محمد بن الحسين الرضي العلوي الموسوي ، نقيب اشراف بغداد توفي سنة ٤٠٦هـ عن خمس واربعين سنة . وخير من كتب عن هذا الشاعر الكبير هو الدكتور محفوظ في كتابه (الشريف الرضي) حلل فيه الرمزية في شعر الشريف تحليلا رائعا . منشورات مكتبة بيروت ١٩٤٤ .

(١٩) دفاع عن الادب ص٩ من مقدمة المترجم .

(٢٠) المصدر السابق ص ١٠٣ .

بهم .... اعرف رجالاً سخت عليهم الطبيعة ، فلهم ملكات خالقة ممتازة ، وذوق مرهف ، ونبرات لا تحاكي ، بل احيانا كثيرة ، انواع من ملاحة المظهر : وجه ساحر وصوت مؤثر ، وقبضة يد حارة ، ثم ماذا ؟ ... هؤلاء فنانون ماهرون او مفنون ممتازون .... وانا اعجب بهم او على الاصح اعجب بما عندهم من هبات ، ومع ذلك اشعر نحوهم بنوع من الأحتقار ، مع عمل كل مايلزم كي لايظهر من ذلك الاحتقار شيء . ولو ان هذه الهبات سُلبت منهم ـ وذلك ماقد يحدث ـ لاصبح هؤلاء الرجال اقل في نظري من قشـــرة برتقالة .... لقد عشت مايكفي لاقول في عزم انني اذا كنت اعجب بالفنانين الكبار ، فانني اعجب اكثر من ذلك بالاخـلاق الكبـيرة فأتلمَّسها واجلّها] .

- ٣ -

ولابد لنا من عرض بعض آراء الفلاسفة في المشكلة الاخلاقية :

فسقراط ـ مؤسس الفلسفة الاخلاقية في العالم الغربي ـ كان يقول [ان الفضيلة ثمرة العلم] .

[واستنتج من هذه النظرية نتيجتين : (٢١)

١ ـ ان الانسان لايستطيع ان يعمل الخير مالم يعلم الخير ، وكل عمل صدر لا عن علم بالخير فليس خيرا ولا فضيلة ، فالعمل الخير لابد ان يكون مؤسسا على العلم ومنه ينبع .

---

(٢١) كتاب الاخلاق ص ٢٤٢ .

٢ ـ ان علم الانسان بأن الشيء خير ، علما تاما ، يحمله حتما على عمله ، ومعرفته بضرر الشيء تحمله حتما على تركه ، وليس انسان يعمل الشرّ وهو عالم بنتائجه ، فكل الشرور ناتجه عن الجهل .

اما تلميذه افلاطون فيرى(٢٢) [ان في كل فرد ثلاث طوائف من الاستعدادات السيكولوجية ١ـ العقل الذي يقوم على التفكير ويَقِرّ في الرأس ٢ـ العواطف الكريمة وهي تنبع من القلب . ٣ـ الشهوة ومصدرها البطن ، فماذا يجب لتحقيق تلك الحالة عند الفرد ؟ خذ كمثال : عربة من طراز قديم بها سائق وحصان طيب وآخر خبيث . هذه العربة لاينتظم سيرها الا اذا سيطر السائق تماما على الحصانين فأطاعاه .

فاذا نظرت الى النفس وجدت السائق هو العقل ، والحصان الطيب هو العواطف ، والحصان الخبيث هو الشهوة . هذه النفس تنتظم اذا احتل العقل مركز القيادة فمنع العاطفة من ان تثور ، وألزم الشهوة الاعتدال والسير في الطريق السوي ، فاذا سارت الامور على هذا النسق حصل الفرد على الصحة الاخلاقية ، وحاز كل الفضائل] .

ثم جاء ارسطو تلميذ افلاطون(٢٣) [وكان يعرف الفضيلة

(٢٢) المشكلة الاخلاقية والفلاسفة ص ٤٦ .
(٢٣) كتاب الاخلاق ص ٢٤٦ .

بأنها : خضوع الشهوات لحكم العقل • وبعبارة اخرى : تسليم زمام الشهوات للعقل كي يقودها •

فللفضيلة عنصران : العقل والشهوة ، فلا بد من شهوة تنضبط • فالزهاد الذين يقتلعون الشهوات من جذورها هم في ضلال مبين ، انهم ينسون او يجهلون ان الشهوات جزء اساسي من الانسان ، فأستئصالها ضار بطبيعته ، مضيع لشطر منه ، بل ان استئصال الشهوات مضيع للفضيلة ، لان الفضيلة معناها : شهوات موجودة يضبطها العقل لا شهوات مستأصلة • وبعبارة اخرى : الفضيلة شهوات معتدلة بحيث لاتطغى على العقل ولا يطغى عليها فتستأصل] •

هذه الآراء لاعظم مفكري وفلاسفة العالم ، كلها تركز على قيمة العقل المهذب المثقف المملوء بالمعارف ، وأثره في خلق الفضائل في الانسان • وكل المفكرين الذين جاءوا بعدهم يرون ان الفكر الضيق مصدر كثير من الرذائل ، وكلما ضاق الفكر انبعثت عنه اخلاق منحطة وغامت في عين الانسان رؤية الحقيقة فأصدر احكاما ناقصة او باطلة او جائرة •

ويقول المفكر والعالم النفسي هـ • ا • أوفر ستريت(٢٤)

---

(٢٤) اوفر ستريت : استاذ الفلسفة في جامعة كاليفورنيا – في امريكا – ثم رئيسا لقسم الفلسفة وعلم النفس في كلية مدينة نيويورك • وفي خلال ثلاثين سنة نشر عددا من الكتب في الفلسفة وعلم النفس • وكتاب (العقل الناضج) هو اكثر كتبه شهرة •

H. A. Orerstreet في كتابه (العقل الناضج)[٢٥] [نحن مدينون لمفكري الاغريق ـ اليونان ـ بفكرة ان الانسان حيوان مفكر ، وان تحقيق ذاته رهين باستخدام فكره وعقله ، فالتفكير هو الوسيلة الى النظام ، والاداة التي ننتقل بها من الخلط الى الوضوح والجلاء ، ومن الاضطراب الى التناسق والانسجام • فالعقل هـو الذي يختار ويربط وينظم ويخلق من الفوضى عالما متكامـل الاجزاء •••• لقد كان ما رآه مفكرو الاغريق حقا وصدقـا : يحقق الانسان اكبر قسط من الخير عندما يستخدم عقله وتفكيره • وبقدر ما يبتعد العقل وينقاد لدوافعه واهوائه ويخضع لضـروب التحيز والتبرير ، تبتعد الاحكام التي يصدرها والافعال التي يأتيها عن واقع البيئة التي نعيش فيها ، وتبعاً لذلك تكثر المناسبات التـي يأتي فيها اشياء ما كان له ان يفعلها ، ويترك اشياء كان عليـه ان يؤديها ، الامر الذي ينتج عنه التنافر دون الوئام ، والضلال دون الحق ، فالشخص الذي يحيا حياة تجافي العقل انما يهمل استخدام القدرة ، التي بها وحدها يستطيع ان ينطلق من محبس النفـس الى العالم الموضوعي الكبير الذي يسكنه الناس] •

ونحن لو تأملنا سلوك الذين عاصرناهم والاحياء منهـم ، لوجدنا ان اكثرهم شذوذا وانغمارا في الطرق المعوجة ، هـو اقلهم ثقافة وافرغهم عقلاً ، وابعدهم عن تحصيل علم او فلسفة او ادراك

(٢٥) العقل الناضج ص ١٣٦ •

ما يحيط به من احداث • فالشاعر هو شاعر وكفى والقاص هو قاص يحكي حكاياته ، وكاتب المقال يصول ويجول بغير حساب ، وهذه مهمة بعضهم ورسالتهم ، وما عدا ذلك فهم احرار طلقاء ، لايحاسبهم محاسب ولايلومهم لائم ، لانهم فوق الحساب واللوم ، وهذا اذا لم نكن قد شجعناهم احتفاظا بصداقة او مشاركة في مزاج ! •

لذا ، لو سرنا في نقدنا الادبي على طريقة (سيرة الاديب الذاتية) وحللنا شخصية الادباء على ضوء علم النفس وعلم الاجتماع ونظريات التحليل النفسي وتتبعنا اعمالهم وسلوكهم وتصرفاتهم ، لانكشفت اشياء واشياء وظهرت حقيقة كل اديب ومايتجه بكل وضوح • وعندئذ يعرف كل من مسك بيده القلم انه امام امتحان عسير لايجتازه الا اذا استقام واهتدى وابتعد عن الشذوذ والطرق المعوجه وعرف موهبته وقابليته لينتج ادبا له اثره في نفسه ومجتمعه وفي كل من يقرأه ، وبذلك ينزل كل ذي موهبة في المنزلة التي يستأهلها •

وقد اصبحت هذه الدعوة مما يهتم به علماء النفس والفنانون ونقاد الفن • ففي مدينة (ميلانو) الايطالية[٣٦] شهد متحف

---

(٣٦) مجلة الدستور ، لندن – العدد ٤٠٧ ، ٣-١٢-١٩٧٨ • صفحة الادب والفن حول العالم ص ٤٦ •

ليوناردو دي فنشي ـ الرسام والمهندس والموسيقي الايطالي ١٥١٩م ـ في الفترة الواقعة مابين ٢٣ و ٢٥ من شهر تشرين الثاني ١٩٧٨ ندوة علمية موضوعها (الفن والتحليل النفسي) ، وتأتي هذه الندوة التي حضرها عدد من علماء النفس والفنانين ونقاد الفن ، في سياق الاطروحات المتداولة حاليا في دول الغرب حول العلاقة الوثيقة بين الاعمال الفنية والاوضاع النفسية للمبدعين ، على اعتبار ان كل عمل فني هو انعكاس لحالة نفسية معينة ، وبالتالي فان التأثير على نفسية الناس يؤثر بطبيعة الحال على ما يبدعونه • ومن هنا الاهمية الكبيرة للاشعور في العمل الفني] •

وظيفة الأديب الاجتماعية

مهما كان الانسان فرديا (انانيا) ، فهو في قرارة نفسه يحس بأنه فرد في المجتمع الذي يعيش فيه • وصاحب الموهبة يدفعه احساسه وشعوره – من حيث يدري او لا يدري – الى الانغمار في المجتمع والتفاعل معه ، لان رؤياه البعيدة الدقيقة ، التي قد لاتكون عند معظم الناس ، تجعله يكتشف المجهول ويحاول ان ينقل رؤياه الى مجتمعه بالاداة التي وهبتها السماء له ، فهو مصور عصره وشاهد عليه •

ومهما كانت الحياة الاجتماعية التي يعيش فيها الأديب ، فهو يتأثر بها ويتفاعل معها على قدر موهبته ، وكلما جدّت احداث اندفع اليها معبرا ومصورا ومدافعا وموجها • فأنغمار الاديب في مجتمعه ظاهرة طبيعية في المجتمات الانسانية ، والعكس غير طبيعي • ففي المجتمعات المستقرة – على اختلاف مستوياتها الحضارية – تنشأ اغراض في الشعر والنثر تختلف عن المجتمعات غير المستقرة التي تحدث فيها الهزّات والحروب والاضطرابات السياسية •

ونحن لو تتبعنا الادب العربي منذ العصر الجاهلي لوجدنا فيه صورا دقيقة واضحة عن الحياة الاجتماعية في تلك الحقبة الزمنية الطويلة في جميع اطوارها وظروفها ، ولوجدنا شعراء وخطباء وكتابا اشتركوا وصوروا تلك الظروف • ولكن الظاهرة البارزة هي الاتجاه

(السياسي) : هي صلة الادباء بالقبيلة او بالخلفاء والوزراء والملوك والسلاطين والامراء ، وتأيد سياستهم وسلطانهم او الخروج عليهم ، فيهم المادح المؤيد وفيهم الهجّاء المتمرّد ، وفيهم من أيّد حزبا والتزم به وفيهم من تقلب حسب الهوى والعطاء والحديث يطول بسبب طول المدة وكثرة الادباء الذين لايحصيهم عدد ، ومالدينا من شعر ونثر خير شاهد ودليل .

ومنذ بدء القرن العشرين ، وتطور الاستعمار واستعباد الشعوب ، ونشوء الحركات القومية والوطنية في الشعوب المستعبدة ، اصبحت وظيفة الاديب الاجتماعية عند كثير من الناس تعطي المعنى (السياسي) ، وهذا امر طبيعي ، لان مسؤلية الاديب تدفعه وتلح عليه للمشاركة في الكفاح والعمل على نصرة الحق وتنبيه الناس الى معرفة مايحيط بهم من ظلم وجور والاخذ بأيديهم الى الطريق الذي يوصلهم الى حقوقهم .

ويقول المفكر والعالم النفسي هـ.أ. اوفر ستريت في كتابه (العقل الناضج) في فصل بعنوان : دور السياسة في تطور الفكر[1] :
[الرأي السائد اليوم هو ان للسياسة صلة وثيقة بالتفكير ـ تفكير كل انسان ـ فقد بدأ العلماء ـ لا علماء النفس والاجتماع وحدهم

---

(١) العقل الناضج ص ٢٤٤ . وكنت قد حدثتك عن المؤلف في ص٩٦ .

وانما علماء الطبيعة كذلك ـ ينبهون الى ان مايحدث لنا في محيط السياسة يؤثر في جميع نواحي حياتنا الاخرى ، وان مايحدث لنا في محيط السياسة يتوقف على تكويننا النفسي والانفعالي .

[ولاتزال مشكلة تنظيم المجتمع من اصعب المشكلات التي يجب علينا ان نجد لها حلاً ، هذا اذا لم تكن اصعبها على الاطلاق ، لان المشكلة الرئيسية التي واجهت الانسان منذ بدأ حياته محاولا انتزاع طعامه ومأواه من قبضة الطبيعة ، قد اصبحت الان مشكلة سياسية اكثر منها مشكلة مادية ، وهي كذلك اصعب مشكلاتنا لانها تمس صميم علاقة الفرد بالمجتمع الذي يعيش فيه ، اي تمس حقوقه وواجباته ، كما تمس العلاقات بين المجتمعات المنظمة ممثلة في الامم التي يختلف بعضها عن بعض من نواح عدة ، وتتنافس فيما بينها في مختلف الميادين ، وتخضع كل منها لتأثير ذكريات ماضيها ، وتتصف بالنضج او الفجاجة في موقفها من الخلافات التي تنشأ بينها بالطرق التي تستخدمها في تسويتها] .

لذلك انغمر كثير من الادباء في الشرق والغرب في السياسة ، ومن النادر ان تجد اديبا معروفا الا كانت له مشاركة في السياسة ، قليلة كانت ام كثيرة ، وبذلك تورط فيها بعض الادباء والمفكرين في معظم الشعوب .

وتعليل ذلك ، ان هناك فرقا بين الأديب المفكر والسياسي المفكر . الاديب المفكر عندما يعالج قضية ما ، يضع لها هدفا محدودا

ويسير فيها في طريق محسوب دقيق ، ومنطقي مدروس يلتـــزم به ولايشذ عنه ، كأنها قضية رياضية ، لها قواعدها وقوانينها •

اما السياسي المفكر فله هدف ، ولكن الطريق الموصل اليـــه متعرج متلو ، يتقلب حسب الظروف والاحوال ، ويلبس لكـــل حالة لبوسها ، وفي السياسة اسرار واسرار ، ومقادير ومصادفـات لاتكون في الحسبان احيانا •

والاديب يلتزم بمبدئه وخلقه ، لايراوغ ولايداور ، صريح واضح ، ظاهره كباطنه ، وقوله كفعله • اما السياسي فقد يتعـاون مع الشيطان في الحصول على هدفه فهو يراوغ ويداور ، تعرفـــه في الظاهر ولا تدري شيئا عن الباطن ، وللسياسي كل الوجـــوه والاقنعة ، وليس في قاموسه عدو او صديق الابمقياس المنفعـــة ، والغاية تبرر الواسطة •

ولغة الاديب محسوبة مدروسة بميزان القواعد والفصاحـــة والبلاغة ، ولغة السياسي محسوبة بمقياس المصلحـة والالاعيب ، واظن القارىء يتذكر الازمة التي احدثتها (آل) التعريف في قـرار هيئة ألامم الامم المتحدة رقم (٢٤٢) لسنة ١٩٦٧ بين العـــرب واسرائيل ، عبارة (الانسحاب من اراض محتلة) ام (الانسحاب من الاراضي المحتلة) ، ولاتزال (أل) التعريف المشكلة المعقـدة ، وهي الاساس التي يتمسك بها العدو المغتصب •

ان الذي وضع القرار وتلاعب بـ (أل) التعريف داهية من الدهاة ، وهذه هي لغة السياسة في كل زمان ومكان : حديث بمقدار ، وكلمات محسوبة مدروسة ، فيها من المعاني مالا تعرفه المعاجم والقواميس •

وابن خلدون ٨٠٨هـ - ١٤٠٥م اول من فكر في هذه الظاهرة - وهو أديب وشاعر ومؤرخ ومفكر - فقد جاء في (مقدمته) فصل [في ان العلماء من بني البشر ابعد عن السياسة ومذاهبها] ويعلل ذلك بقوله [وسبب ذلك في انهم معتادون النظر الفكري والغوص في المعاني وانتزاعها من المحسوسات ، وتجريدها في الذهن امورا كلية عامة ، ليحكم عليها بأمر العموم لابخصوص مادة ، ولاشخص ولا جيل ، ولا امة ولاصنف من الناس ، ويطبقون بعد ذلك الكلي على الخارجيات ، وايضا يقيسون الامور على اشباهها وامثالها بما اعتادوه من القياس الفقهي ، فلا تزال احكامهم وانظارهم كلها في الذهن ، ولاتصير الى المطابقة الا بعد الفراغ من البحث والنظر ••• والسياسة يحتاج صاحبها الى مراعاة مافي الخارج وما يلحقها من الاحوال ويتبعها ، فأنها خفية ، ولعل فيها مايمنع من الحاقها بشبه او مثال ، وينافي الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها ، ولايقاس شيء من احوال العمران على الآخر ، اذ كما اشتبها في الامر فلعلهما اختلفا في امور ، فيكون العلماء لاجل ما تعودوه من تعميم الاحكام وقياس الامور بعضها على بعض اذا نظروا في السياسة افرغوا ذلك

في قالب انظارهم ونوع استدلالاتهم ، فيقعون في الغلط كثيرا ولا يؤمن عليهم • ويلحق بهم اهل الذكاء والكَيْس ـ الفطنة ـ من اهل العمران ، لانهم ينزعون بثقوب اذهانهم الى مثل شأن الفقهاء ، من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة ، فيقعون في الغلط] •

ولبعض الشعوب تجارب وقضايا قد تكرر في شعوب اخرى ، وقد سجلها ادباء يعرفون رسالتهم عن وعي وادراك ، وهم بهذا يهدون للخير ويعبدون الطريق لمن يريد السلامة في ميدان السياسة ، على الرغم من المغريات وما يغدقه الساسه على الادباء للاستفادة من نفوذهم الادبي ومنزلتهم الاجتماعية وتأثيرهم في الرأي العام •

ولعل من الخير ان اذكر تجربتين : اولاهما : لاديب مفكر شارك في معظم قضايا بلده الاجتماعية والسياسية ، لكنه كان على حذر في خطواته ، فرسم لنا صلة الكتاب بالسياسة واعطانا تجربته ، وهدانا الى الطريق الذي يحقق فيه الاديب رسالته الاجتماعية والسياسية • ذلك هو الدكتور (جورج ديهاميل) في كتابه (دفاع عن الادب) وقد حدثتك عنه مرات عديدة •

وثانيتهما : تجربة شاعر ناقد انكليزي هو (ستيفن سبندر) Stephen Spender ثار على المجتمع واراد هو وجماعة من الادباء اليساريين ان يكافحوا العنصرية والفاشية ويدعوا الى السلام ويقضوا على الحروب ويحفظوا الحضارة ، بعد ان استولى الحزب

النازي على المانيا والفاشي على ايطاليا وظهرت بوادر الحرب العالمية الثانية ، فحملوا السلاح ليحاربوا في اسبانيا ـ مع الجمهوريين ضد الفاشيين ـ عندما قامت الحرب الاهلية فيها سنة ١٩٣٦ . ولما انتصر الفاشيون على الجمهوريين ـ بمعاونة المانيا وايطاليا ـ وجد سبندر ان الامر يجري على غير ظاهره ، وانه تورط هو وجماعته في معركة ليسوا من جنودها او قادتها ، لانهم خلقوا لحمل القلم لا لحمل السلاح ، وان للسياسة لغة لايفهمونها ، لذلك الف كتابه [٢] (الحياة والشاعر) وفيه يشرح موقف وعلاقة الاديب والعالم والفنان ورجل الفكر بالسياسة ، وكنت قد حدثتك عن هذا ، وسأحدثك عن تجربته في كتابه .

اما الدكتور جورج ديهاميل فيقول في كتابه (دفاع عن الادب) [٣] : [ان وظيفة الكاتب الاجتماعية لا تترك مجالا لجدل كبير ، ولكن الموقف يتغير بلا ريب اذا أعطيت كلمة (اجتماعي) نبرتها الحديثة .... ومن الممكن اذا تمسكنا بدقة الالفاظ ان نجهض المناقشة ، فالكاتب ليس له ولا يمكن ان تكون له وظيفة

---

(٢) ترجم الكتاب الدكتور مصطفى بدوي ، وراجعته الدكتوره سهير القلماوي ، وهو من سلسلة (الالف كتاب) رقم ٢٥٨ التي تصدر في جمهورية مصر العربية .

(٣) دفاع عن الادب ص ١٥٠ .

فيما نسميه (السياسة الاجتماعية) • ومن المنتظر – في هيئة اجتماعية محكمة البناء – ان يوكل الاجتماع والسياسة الى عناية اخصائيين أكفاء ، يختارون في حذر من بين من انضجتهم التجارب • نعم انه من الممكن ان يرى الكاتب ان عليه واجبات في هذا الميدان ، بل ان يقبل بعض الاعباء ، ولكن وظيفته الحقيقية ليست في هذا •

[وبعد هذا الايضاح الذي قصدت منه اساءة فهم مدلولات الالفاظ ، اضيف انه من العبث ان نترك جانبا مشكلة تعرض لتفكيرنا كل يوم ، وهذه المشكلة ليست حديثة ، ولكن سير الحوادث يجعلها اليوم اكثر الحاحا مما كانت في اي وقت مضى • يجب اذن ان تناولها وجها لوجه • وفي رأيي انها تعرض على النحو الآتي : هل على الكاتب ان يشترك اشتراكا فعليا في المعارك السياسية وبخاصة المنازعات التي تشتبك فيها طبقات الهيئة الاجتماعية ؟؟ يجيبنا التاريخ فورا بعدة اجابات ، فعدد من الكتاب الذين كانوا كتابا كبارا ، كتابا مجيدين لم يخشوا ان يشتركوا في الجهاد السياسي ، ولم يخشوا ان يضعوا في خدمة الاحزاب لا قيمتهم الانسانية فحسب ، بل ونفوذهم الذي اكتسبوه بفضل مواهبهم الادبية • تدخّل بعضهم في الحوادث مدفوعا بشهوات نفسه ، وتدخّل بعضهم لحبهم للقتال او للسلطة ، كما تدخل نفر ثالث مجرد عن كل هوى استجابة لصوت ضميرهم وكل هذه – وكثير غيرها – بواعث يمكن ان تلوح

موجبة في نظر هذا الشخص او ذلك ، وكل كاتب هو الحكم الوحيد فيما يختار من موقف • ومع هذا فمن واجبنا ونحن نفكر في الوقائع ان نبحث عن عناصر رأي مستقل •

[وانصار التدخل يستمدون حججا ثقيلة الوزن من الامثلة الشهيرة التي خلفها التاريخ ، وهم يقولون : انه مادام الكاتب يعطي نفسه الحق في ان يكون شاهدا وحكما ، فانه يسيء الى مهمته دائما اذا لم يضع موهبته ونفوذه بل وشخصه في خدمة القضايا العادلة ، في خدمة المظلوم ضد الظالم ، وبوجه عام في خدمة الانسانية ••••

[لقد بذلت الاحزاب المشتبكة في الجهاد السياسي — وبخاصة في اوائل القرن العشرين — اكبر المجهودات لحمل العلماء والفنانين والكتاب بوجه خاص ، على الاشتراك في العمل ، وذلك لان اعضاء الاحزاب يقدرون النفوذ الحقيقي الذي يتمتع به الكتّاب عند الرأي العام حق قدره ، ومن ثمّ يعملون كل ما في وسعهم لكي يضموا الى جانبهم قوى فعالة كهذه ، ويرى الكتاب انفسهم موضع الرجاء في كل يوم ، وبخاصة من الاحزاب المتطرفة •••

[ففي كل يوم ، بل في اليوم الواحد ، اكثر من مرة يطلب الى الكتاب ان يعلنوا آراءهم في مشاكل او مواقف لايكادون يعلمون عنها اي شيء ، او في اشخاص لا يعرفونهم الا بالاشارة عن بُعد ••• وفي هذه الظاهرة مايمس قضية الذكاء والآداب مسّا قويا ، فهي

بميلها الى الانتشار ، تعرض الكتاب لخطر فقدان نفوذهم الـذي اكسبوه بجهدهم الطويل ، وذلك في غير نفع لاحد • و انه لمن الممكن ان ينتهي فرط الاعتماد على قوة جماعتنا ـ اي جماعة الكتاب ـ ونفوذها الى الذهاب بما لها من حسن الصيت ولئن حدث ذلـك لكانت فيه محنة كبيرة •

[ولكن هل معنى هذا انه يتعين على الكاتب الحريص علـى اول واجباته ان يلجأ الى المقاطعة بسبب تلك الظروف الشاذة شذوذا يبلغ الاسف الى اقصاه ؟؟ طبعا ، هذا ليس رأيي • فكما يطيـل شجر[4] (النَّد) التفكير سنين طويلة قبل ان يدفع بزهره الى الضياء ، كذلك يجب على الكاتب ان يصبر على تجربـة طويلـة ليَبلُوَ القضية التي يريد ان يفصل فيها • يجب ان يستجمّ وقتـا طويلا قبل ان يتناول الحديث ، كما يجب ان لايتناوله في غـير الوقت الملائم ، وان لا يقول غير الضروري وهو بذلك قد يوفق في استخدام قوته وتغليبها • والنهوض بعمل شائك كهذا والنجـاح فيه يجب على الكاتب ان يصم اذنيه عن الحاح رجال الاحزاب • يجب ان لايقبل قط تنفيذ امر ، كما يجب ان يعرض عن مقتضيات المجاملـة] •

اما الشاعر الانكليزي اليساري (ستيفن سيندر) فقـد كنت ترجمت في ص (٤٦) بعض ماجاء عنه وعن جماعته وأود ان انقـل

(٤) الند ـ بفتح النون وكسرها ـ نوع من الطيب او العنبر ـ

بقية الحديث لانها تعطينا اطارا للصورة التي صور بها الشاعر موقف الاديب او العالم او المفكر من السياسة ومايجنيه منها اذا دخـل غمارها ، ثم اتحدث عن تجربة هذا الشاعر في كتابه (الحياة والشاعر) .

[(٥) ففي الحرب الاسبانية الاهلية بلغت الحركة اوج مجدها ـ ويقصد حركة سبندر وجماعته ـ وكلما ازداد وضوح هزيمة الجمهوريين ، ابتدأ الامل الكاذب في الزوال . ولم تكن خيبة الامل سهلة عليهم ، بل كانت شعورا عميقا في ان العواقب اكثر تعقيدا مما ظهرت على السطح ، وان المذهب المثالي للكتاب ، قد أُستُغِل بأستهتار في اللعبة القديمة لسياسة القوة . وقد شعر الكتاب بما يلحق الاذى بسمعتهم ، وبأنهم لم يقوموا بعمل طيب بمشايعتهم فيما ظهر الان انه لم يكن سبيلاً للحرية بل عقيدة سياسية ضيقة التنظيم ، وربما اهملوا واجبهم الحقيقي كفنانين ـ لانتاج اعمال لها قيمة دائمة ـ لمصلحة اشياء سريعة الزوال . ولما بدأت الحرب العالمية في ايلول سنة **١٩٣٩** ، وصل جزر الثورة عند هؤلاء الى نهايته ، عدا اولئك الذين هم سياسيون اولا وفنانون ثانيا ....

[ومها كانت وجهة النظر السياسية عند هؤلاء الكتاب ، فانها نادرا ماكانت تظهر على كتاباتهم منذ سنة **١٩٣٩** ، حتى ان صوت

(5) English Language and Literature P.351.

الوطنية الذي اصبح صارخا سريعاً في بريطانيا بعد سنة ١٩٤٠ - بسبب دخولها الحرب ووقوفها لوحدها - كان عندهم اقل مستوى من وزن بريطانيا الحضاري ، مما يدعو الى العجب من هذا الصمت .... وهكذا اصبح اليوم كثير من القصائد التي تتسم بالشيوعية للشاعر ستيفن سبندر وجماعته ، قديما مهجورا وسطحيا واحيانا هستيريا . ومن حسن الحظ ان هؤلاء الشعراء كانوا من العمق في الالهام ، لذلك بقيت اشعارهم يتدارسها المؤرخون الذين يحبون البحث] .

وبعد هذه التجربة القاسية التي جربها الشاعر سبندر هو وجماعته فحملوا السلاح وقاتلوا ، وقتل بعضهم ، الف كتابه (الحياة والشاعر) وقد وضع فيه كل تجربته وردود الفعل التي حصل عليها ، وصورها احسن تصوير لمن يسلك طريق السياسة من الادباء .

ومما قاله(٦)[لقد شغلني كثيرا في السنوات العشر الاخيرة السؤال الآتي : مامركز الفنان او الكاتب او الشاعر او ألعالم أو المفكر حينما يقرر قضية سياسية ؟؟

الجواب على هذا السؤال : هو ان كلا من هؤلاء انما يتخذ سمعته ، كرجل نزيه بارز في ميدان من ميادين المعرفة ، وسيلة

(٦) الحياة الشاعر ص ٢ ، ٤ ، ٦ ، ٢١ ، ٢٦ ، ٢٨ .

تمكنه من ان يعرض قضية ما ، غيره أمهر منه كثيرا في عرضها ، فلا يعلق المستمعون اية اهمية على طريقة عرضه لهذه القضيـة ، وانما الذي يجعل قوله ذا اهمية : هو بُعد صيته في ميدان غير ميدان الخطبة التي يلقيها او الكتاب الذي يكتبه ان كانت وسيلتـــه الكتابـه .

[ويمكننا ان نشبه موقفه بموقف(٧) (اينشتين Einstein لو تخيلناه ، وهو الذي لادراية له بالقانون ، ماثلا امام المحكمـة يدافع عن قضية أحسَّ ان من واجبه ان يدافع عنها ، ولنقل مثلا قضية اعتقال عالم زميل له . سنجد ان اينشتين سيكيّف اسلوبـه ولاشك حسب القانون . ولكنه لن يؤثر على (٨)المُحَلَّفين باسلوب القانون . ان الذي سيؤثر فيهم هو كون هذا العالم الكبير يقـف امامهم ويتحدث اليهم .

[واذا افترضنا ان انيشتين ظل سنوات عدة يدافع عن عـدد كبير من المعتقلين العلماء ، فانه خلال هذه المدة الطويلة سيعمل على

---

(٧) اينشتين : عالم فيزيائي الماني . ولد سنة ١٨٧٩ . له نظرية التناسب في الزمان تؤدي الى نقض نظرية نيوتن في الجاذبية العامة ، وتدعى بالنظرية النسبية .

(٨) المحلفون ـ جماعة من الخبراء تختارهم المحاكم للنظر فـي القضايا الطارئة التي تهم الاشخاص المتهمين ، لاستشارتهم واخذ آرائهم .

حساب كونه عالماً معتمدا على هذه الحقيقـة ، وهي انـه عالم ، بـل يتخذها وسيلة للعمل في محاكم القضاء ، لو افترضنا ان في مقدوره ان يصنع ذلك • ولكن مما لاشك فيه ان هناك حدا لقدرة المحلّفين على التأثر بأينشتين العالم الكبير ، وهو يدافع عن قضـية المضطهدين • عندئذ لابد ان يطرأ السؤال التالي : الا يجب على اينشتين ان يختار بين أمرين : اما ان يُطلّق العلم ويصبح محاميا ، واما ان يكف عن الظهور في المحاكم ليعود الى العلم ؟؟

[ليس تشبيه السياسة بالقانون تشبيها دقيقا ، ولكن هـــذا بالتقريب هو موقف رجل الفكر عندما يلج ميدان السياسة ، فهو يهجر كتابته وابحاثه ومرسمه لكي يعتلي منصة الخطابة السياسية العامة • وبعد حين يستنفد تأثيره في الغير باعتباره كاتبا او عالمـــا او فنانا ، واذا بلغ الامر الى هذا الحد فلزام عليه ان يختار بـــين أمرين : اما ان يهجر نشاطه الاصلي لكي يلتحق بميدان السياسة ، واما ان يتخلّى عن السياسة ليحيا صيته الادبي الذي اسـتنفده في ميدانهـا •

[هذه هي المشكلة التي لحظتها منذ بضع سنوات في نفســي وفي زملائي الكتاب ونحن نلعب دورنا على مسرح السياسة اليسارية • ومما جعل القلق العميق يستبد بنفسي : هو ان الكثرة من حديثنـا لم يكن الا كلاما سطحيا قائما على افتراضات خاطئة اخذناها على

على علاقتها من الاحزاب السياسية التي بدا لنا انها مدركة ضرورة انقاذ الحضارة ، تلك الحضارة التي كانت مشرفة على الهلاك ، والتي كانت ستجرفنا الى الهلاك معها ، وتجرف جميع اوجه نشاطنا في تيارها .... وابان تعضيدنا لهذه القضايا اي - ماتسميه بالاشتراكية والديموقراطية والضمان الجماعي وطبقة العمال الدولية - لم نتحول الى ساسة محترفين ، وانما كنا لانزال رجال فكر ، اعرنا انفسنا لخدمة هذه القضايا . وفي الواقع لم يدفعنا الى الانغماس في السياسة اخيرا الا رغبتنا في ان تنعم بعالم جديد حر لا يقلقه الصراع لاجل السلطان بين امة وامة او بين طبقة واخرى .

[ولكننا حينما اشتغلنا بالسياسة كنا نفعل ذلك مستخدمين اسلوب رجالها ، فكنا لا نحيد عن المذهب السياسي المقبول ، وكنا نقرر قضايا سياسية بعينها ونوقع على المطالب ، كما كانت لنا شعاراتنا الخاصة .... واذا كانت القضايا والاحزاب السياسية التي عضدناها قد استفادت منا بعض الشيء باعتبارنا رجال فكر لنا حظنا من المعرفة والنزاهة خارج محيط السياسة ، فاننا بدورنا استفدنا من هذه القضايا والاحزاب ، اذ كنا نعتقد انها تستطيع انقاذ ما وقفنا حياتنا عليه . ولقد اشهر اليوم افلاس كلا الفريقين ، واتضح ان مقدار الخدمات التي يمكن ان يؤديها كل منهما للاخر ، لايوازي التضحيات التي يقدمها كل منهما . وكان من

تائج افلاس القضايا السياسية والفكرية على السواء في الـدول الديموقراطية ان اخذ الناس الذين خارج المعركة في امريكـــا وغيرها ، ينظرون الينا بفتور بعد ان كانـوا يعضـدون اسبابـــا ويتحمسون لقضيتها ...

[ولو كانت السياسة هي كل شيء في الحياة ، ولو كان يتحتم علينا ان نتخلى بالتدريج عن اخلاصنا لكل شيء ماعدا ما يتطلبه نضال آلي ، فاننا سنفقد معظم ماهو جدير بالدفاع عنه . حينئـذ تصبح السياسة هي الحقيقة الوحيدة ، ويصبح كل من لهم صيت خارج ميدان السياسة كالفنانين والمفكرين والعلماء اكثر امانة حقـا لو انهم هجروا أطلال الفكر التي يهتمون بها ، وتحولوا الى مجـرد مهيجين سياسيين ومخترعي آلات مميتة وناشري دعاية ، واعضاء احزاب وسياسيين محترفين ...

[ولنعد مرة اخرى الى تشبيه اينشتين ان واجبه اذن ان لا يهجر العلم ليصبح محاميا ، كما ان واجبه ان لايعود الـــى رياضياته وكأن جديدا لم يكن . واجبه ان يحاول توضيح مهمـة البحث العلمي واغراضه حتى يمكن لمواطنيه ان يفهموه ويناصروه . واجبه ان يبين بوضوح ان في دولة تضطهد العلماء سيقضى علـــى النشاط العلمي بالمعنى الواسع البعيد الحر ، وحينما يفهم المواطنـون قيمة العلم فأنهم سيلجأون الى اولئك الساسة الذين يفهمون هـــم ايضا قيمته ويعضدونهم ، وهكذا لن يضطر العلماء الى ان يتحولوا بأنفسهم الى مهيجين سياسيين] .

- ٤ -

ان هذه الآراء ، وفي مقدمتها رأي ابن خلدون ، لم تكـــن احاديث عابرة ، بل هي مبنية على تجارب كثيرة تعرض لكل مفكـر يعي مايدور حوله من قضايا واحداث . والحياة بعد ان تعقدت في هذا العصر اصبح امام الاديب الملتزم مجال واسع لمعالجة القضايـــا الاجتماعية التي جدّت ، وهي تمس صميم حياة الافراد والمجتمع . واذا كان من واجب الاديب الملتزم ان يشارك في القضايا السياسية ، فعليه ان يكون حذرا ، يمشي بخطوات مدروسة ، وان تكـــون كلماته بحساب وفي الوقت المناسب ، لان السياسة في هذا العصــر اصبحت على غير ماكانت عليه ، فيها من الاسرار والاحداث مالا يدركها الاديب او المفكر او اي شخص اذا كان يعيش علــــى هامشها ، ولايدري مايجري ويدور في زواياها وخفاياها واسرارها . والمغريات الكثيرة التي تقدم للاديب للاستفادة من مكانته ومنزلتـه او فنه وانتاجه ، قد لا تعوّض عما يخسره اذا ما وضع في ميزان النقد الذي لايرحم احدا ولا يقبل عذرا !!

توجيه الأديب الناشىء

الادب فن ، والفن موهبة ودراسة وعمل ، فالرسام ذو الموهبة يدرس الالوان والظلال والاضواء ، ومدارس الرسم القديمة والحديثة وأشهر الرسامين ورسومهم ثم يبدأ بالرسم ويستمر فيه الى ان يمتلك زمام فنه .

والموسيقي لا بدّ له دراسة الاصوات والآلات بانواعها ، ويستمع الى العازفين المشهورين ، ثم يختص بآلة تتفق مع موهبته وفنه ، ويداوم على العزف دواما لا ينقطع ، وهكذا بقية الفنون .

ولايمكن للرسام او الموسيقي ان ينمو وينضج الاّ على يد استاذ ماهر ، فالعالم لايربيه ويوجهه الا استاذ عالم ، والفنان لاينميه ويشد ساعده إلاّ فنان قدير ، لذلك ظهرت الدراسات العليا في الجامعات لكل فن من الفنون في هذا العصر .

ونحن اذا وجدنا من العباقرة من نشأ معتمدا على نفسه وموهبته ، فهذا نادر ـ وليس على النادر قياس ـ والان ، تطورت الحياة وتعقدت وصارت الدراسة منصبة على الفرد لاكتشاف مواهبه وقابلياته وتوجيهه الى العمل الذي خلق له لئلا تضيع الكنوز الدفينة في طبيعة الانسان ، وضياعها خسارة للفرد والمجتمع وللحضارة

الانسانية • والناس معادن ، والمعادن النادرة موجودة في كل ارض ، ولكنها تحتاج الى المكتشف الذي يعرف خواصها وطريقة تنقيتها وتصفيتها للاستفادة منها •

والفنون جميعها لها قواعد وقوانين وقيود اوجدتها تجارب الفنانين العباقرة على مرّ العصور[1] [والفن لايحيا الا بجهد القيود ، والتيسير يقتله] كما يقول الفرنسيون •

وفن الادب كبقية الفنون ، فلا بدّ للاديب الناشيء ذي الموهبة من دراسة مستمرة وحفظ واطلاع على فنون الادب قديمها وحديثها ليجد نفسه ويدرك اتجاهه الذي يناسب موهبته ، ولا يأخذ بيده في هذا الطريق الطويل الا استاذ اديب عالم بأسرار النفوس مكتشف للمواهب •

ولو رجعنا الى الادب العربي منذ الجاهلية لوجدنا ان بعض الشعراء ربوا اولادهم او اخوتهم واعطوهم ماعندهم من فن وعلم وتجربة فكانوا شعراء ، أو لزم الاديب شاعرا معروفا فكان راويته وتلميذه فاكتسب منه ما افاده وغذي فنه وموهبته •

ولعل خير مثال على هذا هو [أَوْسُ بن حَجَر] شاعر مضر في الجاهلية ، وكانوا يصفونه بأنه استاذ كثير من الشعراء ومنهم :

---

(١) دفاع عن الادب ص ٢١٨ •

زهير بن ابي سُلمى ، وابنه كعب بن زهير والحطيئة والشَمَّاخ بن ضِرار .

وزهير بن ابي سلمى كان مثلا لغيره من الشعراء في تجويد صناعته والعناية بفنه وعدم ابتذاله في موضوعات تافهة ، ومثلـه ابنه كعب .

ويحدثنا ابن قتيبة في كتابه (الشعر والشعراء) ان زهير بن أبي سلمى كان راوية أوس بن حَجر ، والحطيئة كان راوية زهير ، وان أُمَيّة بن أبي الصَلْت كان شاعرا وأباه (أبو الصلت) شاعر ، ومالك بن نُوَيْرة وأخاه متَمّم بن نويرة شاعران ، ومالك بن الحارث وأخاه أسامة بن الحارث شاعران ، وان طرفة بن العبد وأخته[2] (الخِرْنِق) شاعرة ، وخاله المُتَلَمِّس شاعر ، والعَجَّاج شاعر راجز وابنه رُؤْبَة راجز ، وعُقْبَة بن رؤبة شاعر .

ويحدثنا ابن النديم كذلك في كتابه (الفهرست) ان جريرا الشاعر كان ولداه : نوح وبلال شاعرين ، وان عقيل بن بلال شاعر ، وعُمارة بن عقيل شاعر ، وابنة جرير شاعرة (لكنه لم

---

(٢) الخرنق ـ في لسان العرب هي أخت طرفة . والخرنق مصنعة الماء . والمصنعة مايجمع فيه ماء المطر كالحوض . وقد ذكرها المبرد في كتابه الكامل وروى لها بيتين في رثاء أخيها . الكامل جـ١ ص ٢٥٨ .

يذكر اسمها) ، وان دِعْبلَ الخزاعي وابنه الحسين شاعران ، وابا العتاهية وولده وأحفاده شعراء ، وأبان بن عبدالحميد اللاحقي وأباه وأخاه وأبنه حمدان ، كلهم شاعر •

ويقول ابو العباس المبرد في كتابه (الكامل)[٣] : [وأعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان ـ ويقصد حسان بن ثابت ـ فانهم كانوا يعتدون ستة في نسق كلهم شاعر ، وهم : سعيد بن عبدالرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام ، وبعد هؤلاء في الوقت[٤] آل ابي حَفْصة ، فانهم اهل بيت كلهم شاعر ، يتوارثونه كابرا عن كابر] • ويذكر الجاحظ عددا كبيرا من الخطباء ، وفيهم مَن توارثها ، ويقول عن[٥] [سعيد بن عمرو بن سعيد هو خطيب ابن خطيب ابن خطيب] •

هؤلاء مشهورون وبين المغمورين عدد كبير جدا ممن اخذوا صناعة الشعر وفنونه عن آبائهم او اخوتهم او كانوا رواة مختصين بشعراء مشهورين ، وقد كانت صناعة الادب اشبه ببقية الصناعات عندما يختص الولد بصناعة والده او استاذه ويطلع على اسرارها ويتمرن عليها براعة وعناية •

---

(٣) الكامل جـ١ ص ٢٦٤ •

(٤) منهم مروان بن ابي حفصة الشاعر العباسي المعروف •

(٥) البيان والتبيين جـ١ ص ٢٥٢ •

وقد ظهر بين الادباء والبلغاء والكتاب اساتذة موجهون ، وضعوا رسائل ونصائح وقدموها لمعاصريهم من الادباء ولمن يجيء بعدهم مثل : [٦]رسالة عبدالحميد بن يحيى الكاتب ١٣٢هـ ـ ٧٤٩م للكتاب ، ونصيحة [٧] بشر بن المُعتَمر للادباء [٨](والرسالة العذراء) لابراهيم بن المدبّر في موازين البلاغة وادوات ألكتابة ، ووصية ابي تمام الطائي للشاعر البُحتري الطائي وقد تبنّاه وشجعه ودفعه الى المجد كما يدفع الوالد ولده .

ومنهم من ارشد الى الكتب التي لا يستغنى عنها الاديب ، كالبيان والتبيين للجاحظ و (الكامل) لابي العباس المبرّد ، و(الامالي) لابي علي القالي البغدادي ، و (ادب الكاتب) لابن قتيبة ، ومنهم من زاد على هذه الكتب كتبا اخرى .

وتعجبني فكرة عرضها ابراهيم بن المدبّر في (الرسالة العذراء) فيها موعظة وعبرة ، حيث يقول[٩] [فان مُنيتَ بحب الكتابة وصناعتها ، والبلاغة وتأليفها ، وجاش صدرك بشعر معقود ، او دعتك

---

(٦) تجدها في كتاب رسائل البلغاء ص ١٧٢ .

(٧) بشر بن المعتمر ـ هو ابو سهل بشر بن المعتمر البغدادي كان من وجوه المتكلمين ومن افاضل علماء المعتزلة وكان من اكابر بلغاء دهره وخطبائه وكتابه . وكان جميع معتزلة بغداد من اتباعه وله شعر كثير .

(٨) الرسالة العذراء تجدها في رسائل البلغاء ص ١٧٦ .

(٩) رسائل البلغاء ص ١٨٦ .

نفسك الى تأليف الكلام المنثور ، وتهيأ لك نظمٌ هو عندك معتدل وكلام لك متّسق ، فلا تدعونك الثقة بنفسك والعجب بتأليفك ، ان تهجم على اهل الصناعة ، فانك تنظر الى تأليفك بعين الوالد لولده والعاشق الى عشيقه ٠٠٠٠ ولكن اعرضه على البلغاء والشعراء والخطباء ممزوجا بغيره ، فان اصغوا اليه واذنوا له وشخصوا بالابصار واستعادوه وطلبوه منك وامتزج ، فأكشف عن تلك الرسالة والخطبة والشعر اسمه وانسبه الى نفسك • وان رأيت العيون منصرفة والقلوب عنه واهية ، فأستدل به على تخلفك عن الصناعة وتقاصرك عنها ، واستريب رأيك عند رأي غيرك من اهل الادب والبلاغة فقد بلغني ان بعض الملوك دعا انسانا الى مؤانسته حتى ارتفعت الحشمة بينهما ، فأخرج له كتابا قد غشاه بالجلود ، وجمع أطرافه بالابريسم ، وسوّى ورقه وزخرف كتابته ، وجعل يقرأ عليه كلاما قد حبّره فيه ونمقه عند نفسه وجعل يستحسن مالا يحسن ، ويقف عندما لا يستثقل قراءته حتى اتى على الكتاب • فقال له ــ الملك ــ : كيف رأيت ماقرأت عليك ؟ قال ــ الرجل ــ : ارى عقل صانع هذا الكلام اكثر من كلامه • ففطن له ولم يعاوده الى ان وقف به على تنور مسجور ثم قذف بالكتاب في النار • وهذا الرجل في عقله فضلة وفيه تمييز] •

هذه الوصية لم تكن عبثا ، فقد عمل بها بعض الشعراء مع مكانتهم ومنزلتهم الشعرية • فيروى ان الشاعر (الكميت بن زيد

الاسدي) عندما نظم قصائده[١٠] (الهاشميات) في مدح بني هاشم وفي حقهم في الخلافة ، عرضها اولا على (الفرزدق) الشاعر فطلب اليه اذاعتها فأذاعها .

- ٢ -

ومهما يكن من شيء فان توجيه وتنشئة الاجيال من الادباء الشباب لم تنقطع ، وقد اخذوا بها ، فدرسوا واتعبوا انفسهم حتى كان احدهم ينتقل من قبيلة الى اخرى او من بلد الى بلد لدراسة شعر شاعر او الاخذ عنه والرواية له . وبجانب هذا كان نقاد الادب يجتمعون ويتناقشون ، وبينهم من كانت موازينهم دقيقة وآراؤهم مازلنا نعتمد عليها .

وليست مجالس الاصمعي ٢١٦هـ ٨٣١م في البصرة وفي بغداد بحضرة الخليفة هارون الرشيد ، واجتماعه بشعراء القبائل ونقده الشعر والشعراء ، بخافية على احد ، وقد تتلمذ الاصمعي على شيوخ عصره مثل : الخليل بن احمد الفراهيدي وحمّاد بن سلمة وحماد بن زيد ، وتتلمذ عليه جماعة من الرواة والنقاد مثل : ابن اخيه عبدالرحمن بن عبدالله ، وابو عبيد بن القاسم بن سلام ، وابو

---

(١٠) تاريخ الشعر السياسي للاستاذ احمد الشايب ص ١٦٥ . والفرزدق كان يضمر ميله للعلويين ويكتمه ، وقصر مدحه على خلفاء بني امية (حديث الاربعاء) جـ٢ ص ٣٠٨ .

حاتم السجستاني وابو الفضل الرياشي وغيرهم . وكتابه (فحولة الشعراء) من اقدم ما وصلنا من كتب النقد الادبي ، وفيه آراء جريئة في ميزان الشعراء ومنزلة بعضهم .

ويقول ابن قتيبة في كتابه (الشعر والشعراء) في حديثه عن (الكميت بن زيد الاسدي) :[11] [قال خلف الاحمر : رأيت الكميت في مسجد الكوفة يعلم الصبيان] والمعروف ان الكميت شاعر مضري شيعي خطيب عالم بأيام العرب وانسابها ، ولم يكن التعليم وقتئذ قاصرا على القراءة والكتابة ، بل كان حلقات دراسية جامعة لمختلف الاعمار من التلاميذ ولشتى الموضوعات ، فلابد من ان الكميت كان يدرّس الشعر والخطابة من بين الموضوعات التي يعلمها للصبيان .

ولم يكن هذا في الشعر فحسب ، بل كانوا يربون الابناء على الخطابة ، فقد روى الجاحظ[12] [ان بِشْرَ بن المُعتَمر مرّ بأبراهيم بن جَبلة الخطيب ، وهو يعلم فتيانهم الخطابة ، فوقف بشرٌ فظن ابراهيم انه انما وقف ليستفيد او ليكون رجلا من النظارة ...] فأين كل هذا من تنشئة شبابنا وتوجيههم ؟؟

ان على الجامعات مسؤولية كبيرة جدا في اكتشاف المواهب وتنميتها وتهذيبها وتثقيفها واعدادها اعدادا يناسب كل موهبة بعد ان تعددت فنون الادب ، فلم تعد شعرا ورسائل وخطابة ، بل اضيف اليها المقالة والقصة والرواية والمسرحية والسيرة الذاتية ...

ولعل من اهم واجبات الجامعة هو تدريب اصحاب المواهب الادبية على البحث العلمي لانهم يكسبون به الصبر والجلـد ، واحيانا الرهبنة في البحث عن الحقائق ، وبذلك يحسون بالمسؤولية فيما يقولون ومايفعلون ، فلا يستعجلون بالنشر حبا بالشهرة ، ولا ينخدعون ببريق المديح والثناء الذي يكال لهم احيانا جزافا بالحق وبالباطل ، ولايهدمهم النقد مهما قسا ، اذا وثقوا من انفسهم .

والبحث العلمي يدعوهم الى الاتزان والتحليل والتعليـل والمناقشة والرجوع في كل قضية الى اصولها ومصادرها ، فتعمـق جذورهم في المعرفة ، وبذلك يثقل وزنهم ويلتزمون بمبادئهـم ، ولا يكونون ريشة في مهب رياح التيارات التي قد تكون قويـة فتقلعهم من جذورهم الضعيفة العائمة فوق السطح ، وبذلك يدركون ان الثقافة جهد وعرق ودراسة عميقة مستمرة .

وعلينا ان نتذكر دائما ان الجامعات الاوربية هي التي اوجدت هذه الحضارة في جميع مرافقها العلمية والادبية والفلسفية والفكرية والصناعية .... وهي التي انجبت الرجال الذي اصبحوا مشاعـل للاجيال من بعدهم . [13] ففي انكلترا نشأت جامعة اوكسفورد في

(١١) الشعر والشعراء ص ١٣٩ .
(١٢) البيان والتبيين جـ١ ص ١٢٦ .
(١٣) في معجم اعلام الشرق والغرب ص ١٢٤ الملحق بمعجم المنجد عدد كبير من الجامعات وتاريخ تأسيسها في الشرق والغـرب ، تحت مادة (جامعة) .

القرن الثاني عشر وجامعة كامبرج سنة ١٥٢٧ وفي اسبانيا جامعة مدريد ١٥٠٨ وفي المانيا جامعة لايبزج ١٤٠٩ وفي ايطاليا جامعة روما ١٣٠٣ وفي فرنسا جامعة السوربون في القرن الثاني عشر وفي روسيا جامعة موسكو ١٧٥٥ وفي الولايات المتحدة جامعة هارفرد ١٦٣٦ وفي السويد جامعة اوبسالا ١٤٧٧ .

ومثل هذه الجامعات العريقة تجدها في كل انحاء اوربا . وكان ولايزال كثير من الطلاب ينتقلون من جامعة الى اخرى لاكمال تحصيلهم ودراستهم وتعلم اللغات ليزدادوا ثقافة ووعيا .

ان الجامعات هي معامل بشرية تنتج العلماء والادباء والفلاسفة والمفكرين والفنانين .... والحضارة الاوربية لم تأت من الفراغ .

فعلينا ان نعي ان الدنيا قد تبدلت وتعقدت ، وصار واجب الاديب لكي يتثقف ثقافة صحيحة وينتج ادبا يقرأه الناس بلغته ـ او بترجمته ـ ان يتقن لغة اجنبية حيّة ، ليزداد علما فوق علمه وثقافة على ثقافته . ولغة الاديب ـ اية لغة كانت ـ لا تغنيه عن الاطلاع على ثقافة عصره ، هذا العصر العجيب الغريب .

وفي اللغة العربية صفة بارزة قد تنفرد بها عن سائر اللغات ، وهي ان لها تاريخا طويلا وادبا عريقا وكتابا مقدسا حفظها من الضياع ، وهو آية في البلاغة والاعجاز ، فمن لايرجع الى كل هذا ويأخذ نصيبه الوافي منه ، ضل السبيل وخسر اهم اداة من ادوات

نه ، وهي اللغة التي يعبر بها عن فكره ويصوّر بها خياله ورؤياه ويتحدث عن تجربته ومحنته .

- ٣ -

والدكتور جورج ديهاميل يرى ان الجيل الجديد جيل متمرد ، مغرور بنفسه ، لايرضى ان يكون له استاذ او موجه مادام يمتلك الموهبة ، وهو يسير في دروب الحياة متخبطا في منعطفاتها لايهتدي الى هدفه بوعي وادراك واتزان ، لذلك يسميهم (اشباح العبقرية) ويقول(١٤) : [الشيء المزعج هو ان يقين الشباب من العبقرية يقين ذاتي ، يصطحب بشعور عجيب ـ الشعور باللامسؤولية ـ فبينما ترى الرجل الخالق المحنك الناضج ، يحس غالبا بأنه الاداة التي تتألم في انتاج ما تعمل ، ترى الشباب يعتقد انه قبل كل شيء مستودع ذلك العمل ، وهو يحسّ ـ سواء قدر ضعفه ام لم يقدره ، وسواء اعترف بسذاجته ام لم يعترف ـ انه حظي بأعفاء لذيذ ، وليس في عدم حنكته مايقلقه ،مادام يرى نفسه رسول الروح وما دام يحس بالعبقرية تضطرب في حناياه ككائن طفيلي الهي] .

ولم أجد في كل ما قرأت ، نصيحة يجب تقديمها للنشء الجديد من الأدباء ، مثل وصية الدكتور جورج ديهاميل لولده ، اذا

---

(١٤) دفاع عن الادب ص ١٢١ .

المراجـــع

١ ـ ابن قتيبة ـ تأليف الدكتور عبدالحميد الجندي ـ من سلسلة أعلام العرب ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة بوزارة الثقافة والارشاد القومي ـ والكتاب خلاصة رسالة الدكتوراه التي قدمها المؤلف الى كلية الآداب الطبعة الأولى ١٩٦٣ •

٢ ـ الأخلاق ـ أحمد أمين ـ لجنة التأليف والترجمة ـ والنشر ـ الطبعة الأولى ١٩٢٥ •

٣ ـ الأدب للشعب ـ سلامه موسى ـ مكتبة الخانجي بمصر ـ مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى ١٩٦١ •

٤ ـ اعترافات تولستوي ـ ترجمة محمود محمود ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الأولى ١٩٤٧ •

٥ ـ الاغاني ـ لابي الفرج الاصفهاني ـ مصور عن طبعة دار الكتب •

٦ ـ الأنسان ذلك المجهول ـ ألكسيس كاريل • ترجمة : شفيق أسعد فريد • منشورات مكتبة المعارف ـ بيروت •

٧ ـ البيان والتبيين ـ للجاحظ • تحقيق وشرح حسن السندوبي • مطبعة مصطفى محمد • الطبعة الثانية • القاهرة ١٩٣٢ •

٨ ـ تربية سلامة موسى • سلامه موسى • دار الكاتب المصري • الطبعة الأولى ١٩٤٨ •

٩ ـ حافظ وشوقي ـ طه حسين • مطبعة الأعتماد • الطبعـــة الأولى ١٩٣٣ •

١٠ـ حديث الأربعاء • طه حسين • مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٩٣٧ •

١١ـ حماسة أبي تمام • شرح العلامة التبريزي • مراجعة محمد عبدالمنعم خفاجي • مطبعة محمد علي صبيح ١٩٥٥ •

١٢ـ الحيـاة والشاعـر ـ ستيفن سبندر ـ ترجمـة دكتور مصطفى بدوي • من سلسلة (الألف كتاب) رقـم ٢٥٨ مكتبـة الأنجلو المصرية •

١٣ـ حياة قلم ـ طاهر الطناحي • من سلسلة كتاب الهلال ١٩٦٤ •

١٤ـ حياتي ـ أحمد أمين • لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠ •

١٥ـ دراسات في الأدب الأمريكي • بأشراف وتقديم الدكتـ ـ طه حسين • مؤسسة فرنكلن للطباعة والنشر • مكتبة النهضة المصرية • والكتاب تلخيص لستة كتب من الأدب الأمريكي وقد اشترك في الترجمة عدة أدباء مصريين • وترجم الدكتور لويس عوض كتاب النقد في أمريكا •

١٦ـ دفاع عن الأدب • للدكتور جورج ديهاميل • ترجمة الدكتور محمد مندور • لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ عيون الأدب الغربي ١٩٤٢ •

١٧- دفاع عن البلاغة ـ أحمد حسن الزيات ، مطبعة الرسالة ١٩٤٥

١٨- رسائل البلغاء ـ جمعها الأستاذ محمد كرد علي • مطبعة دار الكتب العربية • الطبعة الثانية ١٩٣١ •

١٩- زهرة العمر ـ توفيق الحكيم • مطبعة المتوكل ١٩٤٣ •

٢٠- الشعر والشعراء ـ عبدالله بن مسلم بن قتيبة ـ الطبعة الأولى ١٣٢٢هـ •

٢١- عدالة وفن ـ توفيق الحكيم • المطبعة النموذجية •

٢٢- العقد الفريد ـ ابن عبد ربه الاندلسي ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر •

٢٣- العقل الناضج ـ هـ • أ • أوفر ستريت • ترجمة الدكتور عبدالعزيز القوصي والأستاذ محمد عثمان • مؤسسة فرنكلن للطباعة والنشر ١٩٥٧ •

٢٤- عيون الأخبار ـ عبدالله بن مسلم بن قتيبة • من سلسلة تراثنا • نسخة مصورة من طبعة دار الكتب ١٩٦٣ •

٢٥- الغربال ـ ميخائيل نعيمة ـ دار المعارف بمصر ١٩٤٦ •

٢٦- فن الأدب ـ توفيق الحكيم ـ المطبعة النموذجية ١٩٥٢ •

٢٧- فنون الأدب ـ هـ•ب• تشارلتن • ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود • لجنة التأليف والترجمة والنشر ، من سلسلة الفكر الحديث ١٩٤٥ •

٢٨- الفهرست ـ لأبن النديم ـ مطبعة الأستقامة بالقاهرة •

٢٩ـ في الأدب والنقد ـ الدكتور محمد مندور ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر • الطبعة الأولى ١٩٤٩ •

٣٠ـ في الفلسفة والشعر ـ مارتن هيدجر ، ترجمة الدكتور عثمان أحمد • الدار القومية للطباعة والنشر • الطبعة الاولى ١٩٦٣ •

٣١ـ قواعد النقد الادبي ـ لاسيل آبر كرومبي ، ترجمة الدكتور محمد عوض محمد • لجنة التأليف والترجمة والنشر • من سلسلة خلاصة العلم الحديث ١٩٣٦ •

٣٢ـ الكامل ـ لابي العباس المبرّد ـ مراجعة محمد أبو الفضل والسيد شحاته • دار النهضة ـ بمصر •

٣٣ـ المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ـ ضياء الدين بن الاثير • تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد مطبعة البابي الحلبي ١٩٣٩ •

٣٤ـ المشكلة الاخلاقية والفلاسفة ـ اندرية كرسون ـ ترجمة الدكتور عبدالحليم محمود ، والاستاذ ابو بكر زكري • من سلسلة مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية ـ دار احياء الكتب العربية • الطبعة الاولى ١٩٤٦ •

٣٥ـ مع ابي العلاء في سجنه : طه حسين • مطبعة المعارف بمصر سنة ١٩٣٩ •

٣٦ـ معجم لاعلام الشرق والغرب ـ فردنان توتل أليسوعي ـ ملحق بمعجم المنجد ـ ١٩٥٦ •

٣٧ـ مقدمة ابن خلدون ـ المطبعة البهية المصرية ـ طبع على نفقة عبدالرحمن محمد •

٣٨ـ ملتن ـ لورد ماكولي ـ ترجمة محمد بدران • مطبعة الخانجي ـ القاهرة ١٩٤٦ •

٣٩ـ من البرج العاجي ـ توفيق الحكيم ـ مطبعة التوكل ١٩٤١ •

٤٠ـ من النقد الفرنسي ـ تأليف وترجمة روحي فيصل • اليقظة • سلسلة العمومية والبابيروس •

٤١ـ النقد الادبي ـ احمد امين ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الاولى ١٩٥٢ •

٤٢ـ النقد الادبي ومدارسه الحديثة ـ في امريكا ـ تأليف ستانلي هايمن • ترجمة الدكور احسان عباس والدكتور محمد يوسف نجم • دار الثقافة ـ بيروت •

المجـلات

١ ـ مجلة الوطن العربي ـ باريس العدد ٦٧ ، حزيران ١٩٧٨ •

٢ ـ مجلة الدستور ـ لندن ـ العدد ٣٩٣ ، آب ١٩٧٨ •

٣ ـ مجلة آفاق عربية ـ بغداد ـ السنة الخامسة تشرين الاول ١٩٧٩ • من مقال بعنوان دون كيخوت ودون جوان للكاتب سيزاري روفينسكي ـ ترجمة عدنان المبارك •

المراجع الأجنبيـة

1 - The Adventures ' Of, Don Quixote .
By : Miguel , De Cervantes .
Retold By : A. S. Hornby .
Oxford University Press 1955 .

2 - Arabic Literature . By : H. A. R. GiBB .
Oxford University Press 1926 .

3 - English Language and Literature
By : Michael , Balcon . and J. Lehman
New Educational Library 1947 .

4 - Principles of Literary Criticism .
By : I. A. Richards 1945 .

الفهرس

كتب المؤلف

١ ـ معلم القرية .

٢ ـ البيت والمدرسة .

٣ ـ الطرق العملية لتدريس اللغة العربية .

٤ ـ شاعر المنارة ـ مخلد بن بكّار الموصلي .

٥ ـ الأديب والألتزام .

٦ ـ اللهجة الموصلية ، ومعجم الكلمات الفصيحة
والكلمات الفارسية ـ مخطوط .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (٦٣٠)
لسنة ١٩٨٠

٣٦٠ / ١٠٠٠
١٩٨٠/٤/٢٨


م. سرمد حاتم شكر

هـذا الـكتاب

يتحدث عن الاديب وألتزامه وآراء المفكرين ونقاد الادب القدامى والمحدثين في ثقافة الاديب ولغته والتزامه بمبدئه ، واتجاهاته الاجتماعية ، وفي سيرته الذاتية ، والموضوعات التي توافق موهبته وقابلياته ، وفي تنشئة الشباب من الادباء ليكونوا ملتزمين مؤدين واجبهم الانساني !

الثمن ٥٠٠ فلس